جزء
٨

أسرار النفس البشرية

بقلم

سيد تقي سيد حسين الموسوي

حفظه الله

كتاب

أسرار النفس البشريّة

الجزء الثامن

(٨)

للمؤلف

سيّد تقي سيّد حسين الموسوي

حفظه الله

www.taqimusawi.com

0096899419461

صندوق البريد ٩٣٠

الرمز البريدي ١١٤

سلطنة عُمان

المصادر

- كتاب معاذلة النّفس وهي صحيفة من صحف نبيّ الله إدريس عليه السلام.
- كتاب السَّحر للمؤلف الياباني الدكتور يوشي ميكي مايدا.
- كتاب قدوة الفقهاء والعارفين للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب أسرار النّفس البشريّة الجزء الثاني للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب وحدة الإرادة في الوجود للمؤلف سيّد تقي الموسوي.
- كتاب السّموات السّبع للمؤلف سيّد تقي الموسوي.

المحتويات

المصادر ٦
المحتويات ٧
العرفان بالجميل ١٠
المقدمة ١١
يا نفس كنت نطفة وعلقة ومضغة ٣٨
وهل يزيل العلم الحديث حيرتنا ٤٢
لو اجتمعوا على خلق بعوضة لما قدروا ٤٥
كيف صار الإنسان عقلاً بالقوّة ذا غضب وشهوة ٤٩
بل عجبت ويسخرون ٥٢
إذا رأوا آية يستسخرون ٥٧
ولعمركم جفت القريش أخاهم ٦٠
الله أكبر ٦٤
عجائب الخفّاش ٦٧
معرفة الثمرة قبل غرس الشجرة ٧١
الانقطاع إلى الله ٧٤
الخوف من الموت ٧٨
العقل الروحاني ٩٠

المعرفة الخالدة ٩٣
الدِّين شيء جميل ٩٦
اللطائف والحقائق ١٠٠
الطبع مصيدة الأولياء ١٠٤
الكنز في بطن السكينة ١١٢
مراقبة الأنفاس ١١٧
تجاوز العقبة الكؤود ١٢٠
هل يوجد عالم العدم ١٢٥
إرادة الله جوهر الوجود ١٢٩
سابقوا إلى معرفة النفس ١٣٣
قوانين حفظ المادة والطاقة ١٣٦
بدايع الله في خلقه ١٤١

العرفان بالجميل

أنا مدين جدًّا في كتبي الأخيرة، وعلى الخصوص هذا الكتاب (أسرار النفس البشريّة)، وأيضًا كتبي السابقة (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصادق عليه السلام) و (ورفعناه مكانًا عليًّا) و(بوذا ونور الملكوت) و(هكذا تكلّم الله على لسان داود) و (هكذا ناجى داود ربه) و (كتاب محاورتي مع الشيخ علي المياحي) و (كتاب المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة) الذي أُسّس بناءً على أسئلته، ذلك للسيد محمد الشوباصي من سوريا، حيث زوّدني بالمراجع القيّمة وساعدني كثيرًا في إتمام كتبي ومراجعتها وتصميمها ونشرها إلكترونيًّا عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي والإنترنت. فالشكر له موصول لما آثرني به من خدمات قيّمة لا أنساها، وأسأل الله العليّ القدير أن يوفّقه في حياته في هذه الدنيا وفي الآخرة إنّه سميع مجيب الدعاء.

وأيضًا أشكر زهير من دبي في الإمارات العربيّة المتحدة وجهاد من البحرين لوضع موقع إلكتروني لكتبي، ولا أعرف حقيقة كيف أشكرهما على مأثرة الإيثار التي يتحلّان بها رغم مشاغلهما الكثيرة. فقد ساعداني كثيرًا في نشر كتبي وسهّلا للقارئ العربي الوصول إلى هذه الكتب. فالشكر موصول لهما إلى الأبد وأتمنّى لهما من كلّ قلبي التوفيق في الدنيا والآخرة.

المقدمة

يا نفسُ ! هناك في عمليّات تكوّن الجنين العجيبة، التي تجري في رحم الأم أسرار عظام، تُفسّر في العلم الحديث بظاهرة العجائب التي تكمن في الكروموسومات والجينات والفيروسات.

يا نفسُ ! هنا تتوقّف الحيرة عند العلم الحديث، لأنّه يظنّ أنّ هذه الجسيمات الصغيرة جدًّا جدًّا جدًّا (المتناهية في الصغر)، التي تتجلّى بشكل كروموسومات وجينات وفيروسات و دي إن إيه DNA و ري إن إيه RNA، قد أزالت الحيرة.

ولكن يا ترى هل تزول الحيرة بوجود هذه الجسيمات !!!

يا نفسُ ! أمّا حيرة الدِّين فهي أبديّة. نقول للعلم الحديث: شكر الله سعيك، فقد زدتنا حيرة إلى حيرة ! فهل تستطيع يا علمُ على أن تخلق بعوضة أو ذبابة أو نملة، ناهيك عن البشر السّويّ سيّد المخلوقات !

يا نفسُ ! يفعل الله جلّت قدرته كلّ ذلك، كما يقول أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ: « كُنْ » فَيَكُونُ، لاَ بِصَوْتٍ يُقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ -سُبْحَانَهُ- فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلَهاً ثَانِياً، لاَ يُقَالُ: « كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ »، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ (بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا) فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ.

يا نفسُ ! كيف أصف لك العلم الحقيقي الذي هو الفعل، والعالم الحقيقي الذي هو الفاعل، والمتعلّم الحقيقي الذي هو من له قابليّة رؤية الحقيقة كما هي !

يا نفسُ ! يصف أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام بدايع خلق الله وعجائبه في النّملة والجرادة وغيرهما فيقول: وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرَ مَدْخُولَةٌ.

أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ صَغِيرِ مَا خَلَقَ اللهُ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّىٰ لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ !

أُنْظُرُوا إِلَىٰ النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ (النَّظَرِ)، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَسَعَتْ فِي مَنَاكِبِهَا، وَصُبَّتْ (ضَنَّتْ) عَلَىٰ رِزْقِهَا (وَطَلَبَتْ رِزْقِهَا)، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا (وُرُودِهَا) لِصَدَرِهَا، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا، لاَ يُغْفِلُهَا (لاَ يَغْفَلُ عَنْهَا) الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ (الْحَامِسِ).

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً.

فَتَعَالَىٰ اللهُ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ. لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ، لاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَىٰ أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ (النَّحْلَةِ)، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ، إِلاَّ سَوَاءٌ.

كَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَىٰ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هٰذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ الْبِحَارِ وَالأَنْهَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ الْقِلاَلِ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغَاتِ، وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ.

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَٱلنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لإِخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَىٰ حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلاَ تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا (وعَوْا)، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا (رَدَّهَا)، وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ، حَتَّىٰ تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ إِصْبِعاً مُسْتَدِقَّةً.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ تَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِٱلطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً.

فَٱلطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ، أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَٱلنَّفَسَ، وَأَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا عَلَىٰ النَّدَىٰ وَالْيَبَسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَىٰ أَجْنَاسَهَا، فَهٰذَا غُرَابٌ، وَهٰذَا عُقَابٌ، وَهٰذَا حَمَامٌ، وَهٰذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِٱسْمِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُ (كَفَلَ) بِرِزْقِهِ، وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

واعلمي يا نفسُ ! إنّ الحقيقة تعرض نفسها، وما عليك إلّا التّأمل لهذه المعاني بقابليّة الفهم المباشر، كقابليّة جناح الطّير واستجابتها لإرادة الطير في الطيران، أو كقابليّة السّباحة عند السّمك واستجابتها لإرادة السّمك في السّباحة.

فالقابليّات تتفاعل وتتجاوب مع فعل الله، من دون صوت يُقرع ولا نداء يُسمع، وإنما الكلام هو فعل الاستجابة والتّفاعل. وهذا دليل على لطف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

ليس التّأمّل هو الفهم بالذهن وجمع المعلومات، بل التّأمّل هو التناغم مع مشيئة الله، وفناء العلم في المعلوم ، بحيث يكون علمك رؤية الحقيقة كما هي، والمحو في هذه الحقيقة في حيرة في حيرة في حيرة.

يا نفسُ ! نعم هكذا يكون المتعلّمون الحقيقيّون، في عجَب وحيرة من أمر الله وروائع خلقه وبدائعه. إنّ الحقيقة تعرض نفسها في عَرَصَاتِ الوجود ، وما على المتعلّم إلّا التّأمّل لهذه المعاني بقابليّة الفهم المباشر، كقابليّة جناح الطّير واستجابتها لإرادة الطّير في الطيران، أو كقابليّة السّباحة عند السّمك واستجابتها لإرادة السّمك في السّباحة.

فرجال الله دومًا في عجَب وحيرة من روائع خلق الله، لا في الآفاق والأكوان فحسب، بل أيضًا في أنفسهم من روائع ملكوت الله. فالله يريهم آياته دأبًا في الآفاق وفي أنفسهم، لا ينفكّون يشاهدون هذه الآيات في حيرة وعجَب، فَهُم فيها منجذبون، جذبات تكلّم عنها نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله حيث يقول: << جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ تُوَازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ >>. فهذه هي سمتهم التي لا تنفكّ عنهم، وهذا هو مقامهم.

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه: إنّ الإنسان جامع للملك والملكوت، وفيه نموذج من هذين العالمين، فكأنّ الإنسان نسخة مختصرة من الكتاب الكبير الإلهي، لأنّ جميع العالم كتاب كبير جامع لجميع المعلومات، وإنّ الإنسان نموذج منه، بل كلّ ما في العالم الكبير موجود في الإنسان الصغير.

ثمّ يقول: إنّ الإنسان من حيث نشأته الظاهريّة كتاب صغير منتخب من ذلك الكتاب الكبير. وأمّا الإنسان من حيث نشأته الباطنيّة، ومن حيث الكمال والإحاطة بالمعلومات الكليّة والجزئيّة، وإدراك المدركات العقليّة والحسّيّة، كتاب كبير كالعالم، بل هو أكبر من ذلك. ويستشهد بشعر مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين وإمام المتقين وقدوة العارفين الإمام عليّ عليه السلام:-

دَواؤُكَ فيـــكَ وَمـــا تُبصِـــرُ وَدَاؤُكَ مِنـــكَ وَمـــا تَشـــعُرُ

أَتَزعُمُ أَنَّـــكَ جُـــرمٌ صَـــغير وَفيـــكَ اِنطَـــوى العـــالَمُ الأَكـــبَرُ

فَأَنـــتَ الكِتـــابُ المُبـــينُ الَّـــذي بِأَحرُفِـــهِ يَظهَـــرُ المُضَـــمَرُ

وَمـــا حاجَـــةٌ لَـــكَ مِـــن خـــارِجٍ وَفِكـــرُكَ فيـــكَ وَمـــا تُصـــدِرُ

ما يعنيه السيّد هو انجذاب رجال الله في عالمهم الأكبر، وفي مقامهم الشّامخ المنيع، وعجبهم وحيرتهم.

يا نفسُ ! إنّ الذين يولون لبّ الأشياء اهتمامهم، ويفهمون الأشياء على حقيقتها موضوعيًّا قليلون جدًّا. قليلون من النّاس يتعاطون موضوعيّة الأشياء. كثيرون يتعاطون الصّورة المرسومة في أذهانهم للأشياء، التي نتجت عن ثقافتهم التي تعاطوها منذ الصّغر، وهي بعيدة جدًّا عن الموضوعيّة.

يا نفسُ ! كان الإمام عليّ عليه السلام يقول لهم: <<اعرف الحقّ تعرف أهله >>. ولكنّهم بالعكس دائمًا يعرفون (الأهل !) حسب رأيهم، ثمّ على هذا المقياس يعرفون (الحقّ !) حسب رأيهم.

يا نفسُ ! الببغاوات كثيرة في هذا العالم، قد سجّلوا أصوات داعياتهم في ذاكرتهم منذ نعومة أظفارهم، وقد تلوّث فهمهم بغسل الدّماغ الذي تعرّضوا له. وهم لا يفهمون الحقيقة على موضوعيّتها، إلّا من رحم ربّي !

يا نفسُ ! جفوة النّاس امتحان الله لهؤلاء القلّة، الذين هم أولياء الله. انظري يا نفسُ ! كيف جفا رجال مكّة محمّدًا صلوت الله عليه وآله، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا رجال المدينة

ورجال الكوفة الإمام عليًّا عليه السلام، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا رجال أورشليم عيسى عليه السلام، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا بنو إسرائيل موسى عليه السلام، إلّا القلّة القليلة !

يا نفسُ ! معاصرو عيسى يجفون عيسى ويمدحون موسى، لأنّ موضوع موسى عندهم غسيل دماغ، تعرّضوا له منذ طفولتهم. وهكذا دواليك ... نفس الأسلوب ونفس النّهج في كلّ زمان ومكان !!! ولو أولوا الموضوعيّة حقّها، لرأوا أنّ عيسى وموسى يقولان نفس الشيء، وهما على نفس الخط.

يا نفسُ ! ومعاصرو عليّ عليه السلام يجفون عليًّا ويمدحون الأنبياء، لأنّ موضوع الأنبياء عندهم غسيل دماغ، تعرّضوا له منذ طفولتهم. ولو أولوا الموضوع حقّه، لرأوا أنّ عليًّا عليه السلام والأنبياء على نفس الخط.

يا نفسُ ! يجفون عظماء عصرهم حسدًا منهم وحقدًا، ويمدحون الماضين، لأنّهم قرأوا عن مديحهم منذ نعومة أظفارهم. فَهُم كالببغاوات يردّدون ما سمعوه وما قرأوه، إلّا من رحم ربّي.

يا نفسُ ! وأكبر دليل على ما أقوله هو ما صحّ من الرّوايات بشرط وجود ٣١٣ من الصّالحين لظهور المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه. فالواضح أنّ العدد لم يكتمل، وأنّ أكثر الذين يُظهرون الولاء والحبّ للإمام المنتظر عليه السلام لا يملكون أهليّة لمناصرته، وأنّ حبّهم وولاءهم محض ادّعاء.

يا نفسُ ! تحدث حوالينا كلّ هذه العجائب والبدائع، ونحن لا نعجب من هذه العجائب والبدائع، ولا نكون في حيرة ! بل لا نكون في حالة المحو، وفي حالة الحكمة العظمى. هذا العجَب وهذا المحو يتجلّى في حالة هذه الكلمة العظمى (الله أكبر)، حيث يصغر كلّ شيء أمام الله.

يا نفسُ ! إذا تيقّنّا أنّ كلّ شيء أصغر وأصغر من الله، فمن المحال أن تتبعثر أفكارنا وتذهب إلى أشياء غير الله. نكون على يقين من أنّ الله أكبر من كلّ همومنا وغمومنا، ومن كلّ ثرواتنا ومقاماتنا، ومن كلّ شهواتنا ورغباتنا.

يا نفسُ ! إذا كنّا في هذه الحالة، حيث الله أكبر من كلّ شيء، نكون في حالة خضوع وخشوع تامّ، ومتحرّرين من أيّ نوع من الغرور والتكبّر والتجبّر. نشعر بعبوديتنا لله بتمام معنى الكلمة. وهذه هي العبادة الحقّة، وهذه هي الهداية الحقّة. غير هذا ادّعاء محض، ولو طالت صلاتنا إلى ٢٤ ساعة في اليوم، ما بين قيام وقعود، وركوع وسجود.

يا نفسُ ! ما فائدة الصّلاة يا ترى ! وأنت فكرك في الدّنيا، وأنت في عبوديّة الدّنيا، خارجة عن عبوديّة الله ! أيّ عبادة هذه إن لم تكوني أنت - فكرك وروحك وجسدك وبشرك وعضلك وعصبك وهمّك وغمّك وعلاقتك وشهواتك ورغباتك - في عبوديّة الله بالتمام والكمال !

يا نفسُ ! ويصف أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام بديع خلق الله في الخفّاش مبتدءًا ببيان العجز عن وصف الله تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ. هُوَ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً.

خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ (حكمته)، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلَ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَهَا بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذِّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلاَقِهَا !

فَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِٱلنَّهَارِ عَلَىٰ أَحْدَاقِهَا (حِدَاقِهَا)، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي إِلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ.

فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ (الضُّلُوعِ) فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَٱلنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً، وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطَّيَرَانِ كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَىٰ مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً.

لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا (لَمْ) يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاَجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ تَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِٱلطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً.

يا نفسُ ! فالله جلّت قدرته كالناطق الفائض، ولكن يا ترى أين المستمعون ! هذا الفيض المتدفّق في هذا الوجود البحت البسيط، وهذا الكلام المجلجل في عَرَصَاتِ الوجود، لا يسمعها إلّا القابليّات الصّافية النقيّة، التي تأخذ من الله مباشرة، لا يحتاجون إلى ترجمان ولا وسيط، يتلقّون إبلاغات الله بكلّ وجودهم في عجَب وحيرة لا تنتهي.

يا نفسُ ! هم من الجواهر الذين يلتقون بالجواهر الواردة من خالقهم. فلا تجعلي يا نفسُ ! بينك وبين الله وسيطًا وترجمانًا، فربّما خان التّرجمان في تعبير الكلام، وغيّر القول وحرّفه، كما حدث عند اليهود والنّصارى، من التّحريفات في التّوراة والإنجيل والزّبور ومزامير داود، وكما حدث من التّفسيرات والتّأويلات الخاطئة للكتاب والسّنّة عند المسلمين.

يا نفسُ ! واقتني العلم قبل العمل ومعرفة الثّمرة قبل غرس الشّجرة. واحرصي على أن لا تكون الثّمرة شيئًا ينتمي إلى هذه الدّنيا الزائلة الفانية، فإنّ ربّك يتكفّل بها، فلا تهتمّي بالدّنيا، فإنّ للبيت ربًّا يحميه، واجعلي كلّ همّك الآخرة.

يا نفسُ ! إن كانت الثّمرة التي تطلبينها شيئًا من الدّنيا، فكلّ مجهوداتك لتحقيق ذلك، واقتناء تلك الثّمرة، كبناء يعتمد على اللبنات الأساسيّة في البناء، فإن اعوجّت لبنة اعوجّ البناء كلّه. فاحرصي على أن تنتخبي من البداية الثّمرة المناسبة، التي تنفعك في دار الخلود.

يا نفسُ ! يقول حبيبي رسول الله صلوات الله عليه وآله: << مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مَؤُونَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا >>.

يا نفسُ ! فاحرصي على أن يكون هدفك من البداية الله الله لا غير، والانقطاع إلى الله الله الله لا غير. اعقدي العزم على هذه الثّمرة المقدّسة من البداية، ثمّ ابدئي طريقك إلى غرس شجرتها، واتعبي وانصبي على رعايتها حقّ رعايتها، وجاهدي الجهاد الأكبر، حتى تكمّلي عملك الشاقّ، مصحوبًا بالذّكر الدّائم المستديم، فإنّك يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ[1].

يا نفسُ ! وهذا يتطلّب منك الإخلاص الخالص، بأن لا يكون بينك وبين الله وسيط وترجمان، فإن استهدفت الله من البداية، وأن يكون الله هو ثمرة كدحك وجهدك، فتلك هي الشّجرة الصّالحة المقدّسة.

يا نفسُ ! فابدئي عند ذلك بغرس الشّجرة، وتعلّمي كلّ فنون البستانيّ، تحت رعاية حكيم يرشدك، أو وليّ مرشد يهديك إلى طريق يوصلك إلى الله، بأن تهيّئي لنموّ هذه الشّجرة المقدّسة كلّ الوسائل اللازمة، حتى تنمو نموًّا طيّبًا، وتخرج الثّمرة الطيّبة في نهاية المطاف.

---

[1] (سورة الإنْشقاق ٦).

يا نفسُ ! فخذي أقصر الطّرق للوصول إلى الله، فإنّ الموت قريب، والعمل كثير، واعملي بجدّ واجتهاد، بإخلاص تام، لا رياء فيه ولا نفاق.

يا نفسُ ! والنشأة التي يمكنك غرس هذه الشّجرة المقدّسة فيها هي هذه الدّنيا، فهي مزرعة الآخرة، كما قال حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. وبعدها الموت، ألا تفكّرين يا نفسُ ! في الموت ؟

يا نفسُ ! يقول حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: <<إِنَّ القُلُوبَ تَصدَأُ كَما يَصدَأُ الحَدِيدُ إِذا أَصابَهُ الماءُ، قالُوا: يا رَسُولَ الله، وما جِلاؤُها؟ قال: كَثرَةُ ذِكرِ الموت، و تلاوة القرآن>>.

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي الذي ورد في زبور داود عليه السلام: << أيّها النّاس لا تغفلوا عن الآخرة، ولا تغرنّكم الحياة الدّنيا لبهجتها ونضارتها، لو تفكّرتم في منقلبكم ومعادكم، وفي خشونة الثّرى ووحشة القبر وظلمته، وذكرتم القيامة وما أعددت فيها للعاصي، لقلّ كلامكم وضحككم، ولكثر بكاءكم وذكركم واشتغالكم، ولكنّكم غفلتم عن الموت، ونبذتم عهدي وراء ظهوركم، واستخففتم بحقّي كأنّكم لستم بمسيئين ولا محاسبين، وكأنّكم لا تموتون وكأنّ دنياكم باقية لا تزول ولا تنقطع... >>.

وجاء في حكمة آل داود عليه السلام: <<ويحك كيف لا تذكر لحدك، وانفرادك فيه وحدك>>.

يا نفسُ ! ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: << يابن ادم أجلك يضحك بأملك، و قضائي يضحك من حذرك، و تقديري يضحك من تدبيرك، وآخرتي تضحك من دنياك، و قسمتي تضحك من حرصك، فإنّ رزقك موزون معروف مكتوب مخزون، فبادر للموت بعملك الخير قبل الموت فإنّ رزقك لا يأكله غيرك، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] . إنّ الدنيا اليوم لك وغدًا لغيرك. يا نفسُ ! إنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة >>.

[1] (سورة الزخرف ٣٢).

يا نفسُ ! إنّ العقل الرّوحاني يقسّمه الإمام جعفر الصّادق عليه السلام إلى أربع درجات، حيث يقول عن القرآن الكريم ومدى قبول النّاس له وانجذابهم إليه: القرآن أربعة: << عبارة وإشارة ولطائف وحقائق >>.

أمّا العبارة فهي للعوامّ، فإنّ فصاحة القرآن الكريم وبلاغته تؤثّر على كثير من النّاس وتوقظ روحانيّتهم، وهم العوام. وكذلك أكثر النّاس في زمن الرسول صلوات الله عليه وآله كانوا من العوام، وانجذبوا إلى كلام الله بفضل فصاحة القرآن وبلاغته. فإنّما هم يتفاعلون مع البلاغة، ومن ثمّ ينجذبون إلى معاني القرآن الرّوحيّة. وهذا هو العقل الرّوحاني في بداياته.

أمّا الإشارة فهي للخواصّ، حيث الخواصّ يدركون من القرآن الكريم إشارات لا يفهمون ماهيّتها، ولكنّهم يشعرون في داخل ذواتهم وبواطنهم بأنّها الواقع، وهم الخواصّ. وهذا هو الخطوة الثانية من العقل الرّوحاني.

أمّا اللطائف فهي لأولياء الله، حيث تتناغم أرواحهم مع هذه اللطائف، ويستعيدون ذكريات (ألستُ)[1] ، ذكريات العهد والميثاق والإقرار بربوبيّة الله، ويستشفّون منها طرق الخلاص من المادّة. وهم أولياء الله. وهذا هو الخطوة المتقدّمة من العقل الرّوحاني.

أمّا الحقائق فهي للأنبياء، حيث أنّهم يشهدون ما يقوله القرآن الكريم، يرون معانيه واضحة بيّنة على شاشة بصائرهم ووجدانهم. فالقرآن لهم شهود واضح بيّن، يرون معانيه رأي العين، ويقولون إنّا على بيّنة من ربّنا. وهذا هو قمّة العقل الرّوحاني.

يا نفسُ ! سمة السّماء الثانية الغالبة هي الإيمان والعقل الرّوحاني والمعرفة الخالدة. وهي الطّور النّفسيّ. و تبدأ نورانيّة القلب تنجلي في هذا الطّور والمقام، وتبدأ همّة المرشد بأن تؤتي ثمارها في هذا الجلاء القلبيّ، وتبدأ التزكية عملها في نفسه الأمّارة، التي تنقلب إلى نفس لوّامة، على

---

[1] قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } (سورة الأعراف ١٧٢)

كلّ فعلة وعلى كلّ فكرة وعلى كلّ هفوة لسان وزلّة جنان. يبدأ برؤية ذنوبه والشّعور بها، وينطلق الضّمير حرًّا يحاسبه على ذنوبه. العقل الماديّ أو عقل المعاش يترك مواقعه للعقل الرّوحاني أو عقل الخلود، ويجد امتداده اللانهائي وزحفه القويّ في عالم الخلود والرّوحانيّات، وذلك بقوّة العشق لخالقه وربّه، ويتألّق نور الحقّ في الباطن وتنفتح البصيرة.

يا نفسُ ! إنّ الإنسان لا يفنى، ولكنّه بعد الموت يتعرّض لتغيّرات الشّكل، وأيضًا يتغيّر فكر الإنسان، كما يتغيّر الإنسان نفسه، وبدون شكّ يبقى الإنسان وفكره، ولكن بشكل آخر. والذي يبقى بعد الموت هو الرّوح، وهو صفة الإنسان المعنويّة.

يا نفسُ ! إنّ المؤمن ليسعد ويجد لذّة في فهمه بأنّ أصول دينه حقّ. وهذه اللذّة جزء من فطرة الإنسان ، وأنّ الإنسان يجد لذّة في كلّ شيء منظّم وكامل.

يا نفسُ ! إنّ الحقائق الدّينيّة عندما نفهمها نجد لذّة فيها، لأنّنا نراها كاملة وبدون عيب ونقص. وحينما يكون شيء ما كاملًا وبدون نقص وعيب (ماديًّا كان أو معنويًّا) نراه جميلًا. نحن ننبسط من جمال الحقائق الدّينيّة.

يا نفسُ ! يقول نبيّ الله إدريس عليه السلام: فإذا صار عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة، وردت إليه حينئذٍ القوّة الثانية المتمّمة، التي هي عقل بالفعل، فسارت به إلى حدّ الكمال.

ولتوضيح هذا المعنى الذي بيّنه نبيّ الله إدريس عليه السلام، أضرب مثلًا علّه يقرّب المفهوم إلى الأذهان. لأنّ هذا المعنى لا ينحصر في الإنسان فقط، وما الإنسان إلّا عالم مصغّر من العالم الكبير. هذا المعنى يشمل كلّ شيء، وكلّ العمليّات التي تجري في هذا الوجود. هكذا شاء ربّنا، ونحن مسلّمون لمشيئة ربّنا. ما علينا إلّا أن نوضّح للناس ما هذه المشيئة، حتى يستوعبوها قدر الإمكان، كلّ على قدره.

أضرب لك مثال فاكهة التفّاح، التي تتذوّق حلاوتها وطعمها اللذيذ. يا ترى أين كانت في الابتداء، وكيف صارت بالقوّة، ثمّ كيف صارت بالفعل ثمرًا جنيًّا !

أصبحت أسبابها بالفعل، بعد أن كانت في الابتداء لا بالفعل ولا بالقوّة. ثمّ انتقلت إلى مرتبة كانت فيها بالقوّة، وهذه المرتبة ظاهرة للعيان أمام عيوننا، ألا هي بذر التفّاح، الموجود في بطن التّفّاح.

يا نفسُ ! إنّ في البذر جميع خارطة التّفّاح، التي سوف يكون التّفّاح عليها. فيبقى في مرتبة القوّة أمدًا طويلًا، حتى تغرسي البذرة في التّراب، وتسقيها بالماء، وتعرّضيها للهواء، وتغذّيها بالسّماد، حتى تصير كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ[1] .

حتى يتحوّل شجرة كبيرة، تحمل لا تفّاحًا واحدًا، بل كمّيّات كبيرة من فاكهة التّفّاح. ويدخل التّفّاح في رتبة الفعل، ويتحوّل إلى الكمال، بعد ما ينضج، في صورة التّفّاحة الكبيرة، حمراء اللون، على نفس الهيئة التي تكون فيها باقي التّفّاحات.

وذكر مولاي ومعلمي الرّباني الشيخ صادق العنقا قدّس سرّه في كتاب السَّحر صفحات ٦٥-٦٦: << ولأنّ الهويّة الأصيّلة ليست في هيئة محدودة، قابلة للرؤية بعين الناظر، فالنتيجة هي أنّ آثارها الوجوديّة الملموسة يعتبرها النّاس أصيلة. فلنضرب مثلًا مبسّطًا لتقريب المعنى إلى ذهن القارئ. خذ النّواة مثلًا، فإنّ كلّ مختصّات الشّجرة ومشخّصاتها الطبيعيّة، تكمن في النّواة التي لم تُزرع بعد، وفي عالمها الحياتي الذي ينطوي فيها.

---

[1] (سورة الفتح ٢٩).

فهي تحمل في طيّاتها جميع القابليّات، وعوامل الرّشد والتّكثير والشّكل، وتناسق الأجهزة الحياتيّة للشّجرة. فهذه النّواة الصغيرة وعالمها الحياتي هي هويّة الشّجرة الثّابتة الوجوديّة.

فمن نظر إلى الشّجرة وأغصانها، وأوراقها وأثمارها، وطول سيقانها، وضخامة جذعها، فليبحث في هذه النّواة (إن استطاع ذلك)، وفي كلّ جوانب عالمها الحياتي، القدرة الحاكمة في خريطة هذه الشّجرة بديعة المنظر، واختصاصاتها المنضبطة. وهذا الأمر البتّة ليس من المسائل المحسوسة والملموسة >>.

يا نفسُ ! ما هو الفرق بين اللطائف والحقائق يا ترى ! هو الفرق بين أن تستعيد الرّوح ذكرياتها عن ميثاق العبودية لله والإقرار بربوبيّة الله، وبين العبوديّة الخالصة، ونيل السّلطان، والنفاذ من أقطار السّموات والأرض، محرّرة من كلّ القيود والسّلاسل والأغلال، وعلى الأخصّ تلك التي تتعلّق بالطّبع والعقبة الكؤود في طبيعة الإنسان.

يا نفسُ ! فكما أنّ الثّقب الأسود في قلب السّماء مصيدة الأنوار، حيث لا يمكن للأنوار أن تنفلت، وحيث تقع تحت جاذبيّة الثّقب الأسود كاملة لا فكاك منها، إلّا ما ندر ! كذلك الطّبع مصيدة الأولياء، تصيد الأولياء، إلّا من رحم ربّي !

يا نفسُ ! إذا كان سرّ الفكاك من الجاذبيّة هو الخفّة، كذلك سرّ الفكاك من سلطان الطّبع هو الخفّة الرّوحية التي تعبر الصّراط بكلّ سهولة، والتي هي أحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعرة. أو بعبارة أخرى، أن تكوني يا نفسُ ! الرّوح المجرّد، أو أن تكوني جسمًا مثاليًّا مطلقًا لا شائبة فيه.

يا نفسُ ! والجسم المثالي هو الجسم الأثيري للإنسان، وهو جسم الإنسان الحقيقي، الذي يبقى بعد موت البدن. وهو شفّاف ولا يُرى بالعين، وإنّما يراه في بعض الأحيان من كانت عنده موهبة الصّفاء والشّفافية، وهذه الموهبة يمكن تنميتها في الإنسان بواسطة السّير والسّلوك. والبدن ما هو إلّا تصوير ماديّ منه في هذه النشأة الأولى.

يا نفسُ ! إذا لم أستودعك أسراري، فيا ترى أين أجد مستودعًا لأسراري !! يا نفسُ ! وإلى هذا السّرّ يشير مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام حيث يقول: << العبوديّة جوهرة كنّهها الرّبوبيّة >>.

يا نفسُ ! كم هذه الجوهرة العظيمة خفيفة عند النّاس ! لا يعرفون لها قدرًا ولا وزنًا. يا نفسُ ! هل حقًّا هكذا الجوهرة صعبة المنال ؟

ذكر الله تعالى ذلك قائلًا جلّ من قائل[1] : { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ }.

وليس السّلطان والله إلّا الخروج من أثقال الطّبع والعقبة الكؤود. تمامًا كالصّاروخ إذا انطلق بسرعة ما حرجة، خرج من جاذبيّة الأرض، إلّا أنّه يبقى دائرًا حول الأرض، لا ينطلق من مداره إلى أقطار السّموات والأرض. اللهم إلّا إذا زادت سرعته كثيرًا عن السّرعة الحرجة. كذلك السّالك يجب أن تزيد سرعة سيره كثيرًا عن السّرعة الحرجة، حتى ينفذ من أقطار السّموات والأرض.

يا نفسُ ! وكما يصطاد الثّقب الأسود الأنوار، يصطاد الطّبع الأولياء أيضًا. فلا يطمئنّ أحد إلى عاقبة أموره، وليلتصق بولاية الله، حتى آخر نفس من حياته، كما كان مقداد رضوان الله عليه ينصح به أصحابه.

يا نفسُ ! إنّ الأولياء ليسوا في مأمن من الشّيطان ومن الطّبع، لأنّ قليلًا من الميل إلى الجاه والرئاسة ربّما يخرجهم عن الصّراط المستقيم، وعن أهليتهم لحياة الآخرة في قوله تعالى[2] : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }.

---

[1] (سورة الرحمن ٣٣).

[2] (سورة القصص ٨٣).

ومن شيمة الطّبع الفساد وهو الإفراط والتّفريط والخروج عن خطّ الاعتدال والذي هو خطّ الفضيلة.

وحبّ الجاه والرئاسة في الأولياء ربّما يأخذ شكلًا آخر كحبّ المشيخة وغيرها. والإفراط والتّفريط في الأولياء ربّما يأخذ شكلًا آخر كالتشديد في المستحبّات، واعتبارها كالفرائض.

يا نفسُ ! وفي كأس كلّ سالك خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة التي يحتسيها وحده، عندما يكون صامتًا مصغيًا إلى ذاته العميقة في وحدته. لا يستطيع أحد أن يعلن له شيئًا غير ما هو مستقرّ في فجر معرفته. إنّه في السّكينة وحدها يستطيع السّالك أن يجد الكنز في أعماق أعماقه.

يا نفسُ ! وإذا كانت الآخرة يوم حصادي، ففي أيّة حقول يا ترى بذرت بذاري ! أتراني جاهدت في نفسي التي لبست جلابيب سواد الحنادس، وادلهمّ فيها سجف الليل المظلم ! أتراني جاهدت حقّ جهادي، حتى استتبّت في شغاف قلبي السّكينة والوئام والسّلام، محلّ الطغيان والغرور والظّلام، وتلمّست في سكينة القلب أنوار الهدى وأضواء الحكمة وأسرار الليالي والأيام، واستطعت أن أرفع فيها مصباحي، واضعًا إياه على منارتي ! حقًّا إنّ المصباح ليس منّي، والمنارة ليست منّي، والنّور الذي يتصاعد من المصباح ليس منّي. ذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء، والله واسع كريم.

يا نفسُ ! إنّ ذاتي الإلهيّة كالأثير لا ترفع إلّا ذوي الأجنحة. والإنسان خلق للعمل كما خلق الطّير لكي يطير، والأسماك لكي تسبح، كما قال نبيّ الله أيوب عليه السلام.

يا نفسُ ! من أحبّ الحياة الأبديّة بالعمل النّافع تفتح له الحياة أعماقها، وتدنيه من أبعد أسرارها. إنّ الحياة تكون ظلمة حالكة مدلهمّة، إذا لم ترافقها الحركة. فلتكن حركة أجنحتك بالنّوافل.

يا نفسُ ! وأحسن النّوافل الانشغال بعيوبك عن عيوب النّاس، ولزوم بيتك، والبكاء على خطيئتك. كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: << يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ

النَّاسِ، وَ طُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَ أَكَلَ قُوتَهُ وَ اشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة >>.

وأقصر الطريق إلى الله الانقطاع إلى الله، ففي الحديث القدسي:<< من انقطع إلينا رفعناه مقامًا عليًّا >>.

وأحسن الصّلاة مراقبة الأنفاس على يقين، سواء في اليقظة أو في النّوم العميق. لقول عليّ عليه السلام: << نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ فِي شَكٍّ >>.

وأحسن العقل عقل رعاية لا عقل رواية. وما أكثر الرّواة وما أقل الرّعاة. لقول عليّ عليه السلام << اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ >>.

وأحسن الإيمان الشّكر، لا في القول فحسب، ولا في حالتك فحسب، ولا في مقامك فحسب، بل أن يكون الشّكر عنصرًا أساسيًّا من مزاجك الباطني. فالله يريد منّا الشّكر الشّكر الشّكر ، وأن ننصره بما بلغت قوّتنا. لقول عليّ عليه السلام: << إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ >> [1] .

وأحسن زاد الآخرة الإخلاص وصدق النيّة والسريرة الصالحة. لقول رسول الله محمّد صلوات الله عليه وآله<< أَخْلِصْ دِينَكَ، يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ >>، ولقول أيضًا صلوات الله عليه وآله << أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إِلا مَا خَلَصَ >>، ولقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: <<إِنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ اَلنِّيَّةِ وَ اَلسَّرِيرَةِ اَلصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ اَلْجَنَّةَ>>.

[1] ومن كتاب له (عليه السلام) إلى عماله على الخراج.

يا نفسُ ! وإذا آتى الله العبد رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علمًا ، فإنّ العلم اللدنّي إذا اقترن برحمة الله عزّ وجلّ بصّره بآفات الجاه والرئاسة والإفراط والتّفريط وكشفها على حقيقتها، كي يتحاشاها العبد بعون الله وفضله.

وبصّره بالآفة الكبرى في طبيعة الإنسان وهي العقبة الكؤود في طريق السّالك الواصل، ألا هو التورّط في الطّبع، والبقاء في فلك الطّبع، وفي فلك الطّاحونة والرّحى، وجهله بأنّه يدور في هذا الفلك وفي هذه الطاحونة كما يدور الرّحى، لا ينفذ من هذا الفلك ومن أقطار السّموات والأرض.

يا نفسُ ! إنّنا نلمس البذر ونراه ونحسّه، بمعنى أنّنا نرى رتبة القوّة بشكل مادة، بيد أنّنا نرى ظاهره فقط، أمّا ما في باطنه فيمكننا أن نراه تحت المجهر، ولكن ماهيّته تبقى غير محسوسة وغير ملموسة.

يا نفسُ ! لكن هذا البذر يتعرّض لتغييرات كثيرة، وهو في باطن الأرض، حتى يصير كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ[1] ، وحتى يتحوّل شجرة كبيرة.

يا نفسُ ! نحن نلمس البذر بأيدينا، حينما تصبح الأسباب في رتبة القوّة، رغم أنّ ماهيّة عالمه الحياتي مجهولة لدينا، وتبقى كذلك ما دام جنس التّفّاح باقيًا، حيث بإمكاننا أن ننمّيها إلى أن تنتقل إلى رتبة الفعل والكمال، حينئذ نأكل التّفّاحة هنيئًا مريئًا.

يا نفسُ ! ولكن ماذا بعد أن افتقد التّفّاح، وأكلنا التّفّاح، وامتزج التّفّاح بجسدنا، وغاب عنّا أثره ؟ فالتّفّاح الآن في نشأةٍ أخرى، يجب أن نلمسها في دورة أخرى، ألا هو دورة حياة الإنسان، حيث يعطي للإنسان قوّة إدامة الحياة، في صحّة وعافية، على وجه هذه الأرض.

---

[1] (سورة الفتح ٢٩).

يا نفسُ ! إنّما أنا أعرض تأمّلاتي لهذه المعاني العظيمة البديعة، والتي هي دليل على لطيف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

يأتي حين من الدّهر لا يكون الشيء فيه شيئًا مذكورًا، يعني لا يوجد لا بالفعل ولا بالقوّة.

أين هو ؟ لا بدّ أن يكون في الجنس، في إحدى دوراته - في هذا المثال يكون في جنس التّفّاح - إذا كان هذا الجنس غير منقرض.

أين هو ؟ لا بدّ أن يكون في دورة من دورات الجنس - في هذا المثال في دورة من دورات جنس التّفّاح.

يا نفسُ ! لكنّنا لا نراه ولا نلمسه، بمعنى أنّ شخصيّة معيّنة قد فُقدت، فهي لا بالفعل ولا بالقوّة. فلنتلمّس الحقيقة في الدّورات. في مثال التّفّاح الذي أُكل، وهو يعطي الآن قوّة إدامة الحياة لإنسان، فلنتتبّع آثاره في دورة الإنسان، فمن حياة الإنسان يخرج إنسان آخر، وللتّفّاح دور في ذلك، وهكذا دواليك، فالدّورات متداخلة.

يا نفسُ ! كذلك كلّ شيء في الوجود، الأجناس بالمليارات، ودورات حياة لأجناس مختلفة بالمليارات، وهي كلّها متداخلة في بعضها البعض.

يا نفسُ ! فلنتتبّع حقيقة شخصيّة تفاح ما في جنس التّفّاح، وهو يمرّ بدورات مختلفة، إلى أن تظهر هذه الشّخصيّة بالذّات في وقت معيّن. ثمّ إذا افتُقدت الشّخصيّة بعينها، فلنتتبّعها بعد فنائها في دورات أخرى لأجناس أخرى.

يا نفسُ ! هناك دورات تبرز فيها أجناس، وتنقرض أجناس، وهي بالمليارات. وفي جنس واحد، هناك دورات تقدّر بالمليارات، تبرز فيها شخصيّات، وتقدّر بالمليارات المليارات، ثمّ تموت.

يا نفسُ ! ترى إلى أين تذهب ! نتتبّعها في دورات أجناس أخرى، إلى ما لا نهاية. هكذا هي دوحة الوجود ! مليارات من الأجناس تبرز ثمّ تنقرض، ومليارات من دورات الحياة تبرز ثمّ تنتهي، ومليارات من الشّخصيّات تبرز ثمّ تموت.

يا نفسُ ! يقول الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في سياق محاورته مع تلميذه جابر بن حيّان: أقول لمستمعي الملحد إنّ الإرادة جوهر الوجود، وإنّ الوجود يتجلّى في العالم بشكل مشهود ومحسوس وملموس. ومتى شاءت الإرادة التجلّي بشكل مشهود ومحسوس وملموس ظهرت بذلك الشّكل.

والإرادة والتّجلّيات التي نبعت عنها بشكل عالم مشهود ومحسوس وملموس قريبة جدًّا من بعضها البعض، بحيث لا يمكن الفصل بينهما.

ولا مانع من تسمية الإرادة بالرّوح، لأنّ الإرادة والتّجلّيات التي تنبع عنها بشكل عالم مشهود ومحسوس وملموس، لا تختلف شيئًا عن الرّوح والجسم. ولكنّ الملحد يتقبّل الإرادة والتّجليات التي نتجت عنها أكثر من تقبّله للرّوح والجسم.

هذه الإرادة والتّجلّيات التي نبعت عنها بشكل مشهود ومحسوس وملموس توجد فينا أيضًا، وهي إرادتنا بالتشبّث بالحياة وحفظ تجلّياتها المشهودة المحسوسة الملموسة يعني الجسم. ولقد ذكرت بأنّه لا يوجد في الإنسان ميل وإرادة أقوى من حبّ الحياة.

أقول لمستمعي الملحد إنّ (الإرادة) شاءت خلق تجلّياتها المشهودة المحسوسة الملموسة، فكان هذا العالم الذي نراه ونحن جزء منه.

وهذا هو معنى <كن فيكون> في الحكمة. فالإرادة شاءت أن يكون فكان، وظهر العالم المشهود المحسوس الملموس. وليس بين هذا العالم المشهود المحسوس الملموس وبين الإرادة فرق، اللّهمّ إلّا أنّ الإنسان لا يرى الإرادة ولا يلمسها، ولكنّه يرى العالم المشهود المحسوس الملموس ويحسّه ويلمسه.

والموت هو تجلّي الإرادة المحسوس. وإذا أردت إقناع الملحد، فقل له إنّ هذا العالم المحسوس الذي خلقته الإرادة هو الحياة ذاتها. وأنت تعلم أنّ كلّ شيء في هذا العالم ينبض بالحياة، وحتى الصّخور الصمّاء تنبض بالحياة، ناهيك عن النّبات والحيوان والإنسان ومياه الأنهار والبحار!!!

وعندما قالت الإرادة <كن> <فيكون>، أيْ أن الحياة برزت إلى الوجود.

والموت في هذه الحياة لا يعني العدم، وإنّما هو مجرّد تغيير الشّكل في إحدى نواحي الحياة. الولادة والموت كلاهما حياة، ولا يجوز تسمية الموت نحسًا والولادة يمنًا، لأنّ كليهما وجهان أو مظهران أو تجلّيان من الحياة، مثل الماء والثّلج، هما وجهان أو مظهران أو تجلّيان من الماء، وليس هناك فرق في ماهيّة الماء والثّلج.

كذلك هو ولادتنا وموتنا فهما وجهان من الحياة. والولادة لا تنفي الموت كما أنّ الموت لا ينفي الولادة. وإذا فرضنا الولادة والموت قطبين لعصا، فيمكن فرض العصا بأنّه الحياة وأنّ قطبيه الولادة والموت.

الموحِّد لا يخاف الموت لأنّه يعلم بأنّه يبقى بعد الموت. والملحد إذا عَلِمَ بأنّ الموت وجه آخر من الحياة، فإنّه لن يخاف الموت. وأُفْهِم الملحدَ الذي لا يؤمن بالله بأنّه يبقى بعد الموت.

قل له يا جابر: إنْ عقلنا وحواسنا ناقصة لدرك الأدوات التي بها خلق العالم (أو الحياة). ولكنّنا نرى بأعيننا المواد التي خُلق منها العالم. ولدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة) يجب أن يكون عقلنا أقوى مما هو الآن، وحواسنا غير الحواس التي عندنا الآن.

إنّك تعلم أنّ أفرادًا من بيننا لا يشمّون رائحة - طيّبة كانت أم رديئة - لأنّهم تنقصهم الحاسّة التي بها تُشتمّ الرّوائح. وإنّك تعلم أنّ أفرادًا من بيننا لا يرون شيئًا، لأنّهم تنقصهم الحاسّة التي بها تُرى الأشياء والأشخاص.

ولدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة) فإنّنا مثل أولئك الذين تنقصهم بعض الحواس، فَهُم لا يشمّون رائحة ولا يرون شيئًا. ولدرك ذلك نحتاج إلى عقل أقوى وحواس أكثر من حواس اليوم.

إنّ العلم يمرّ بفترات ركود ونهضة كما أثبت لنا التّاريخ ذلك. ويمكن أن تأتي فترات حركة ونهضة علميّة في المستقبل، يدرك فيها البشر الأدوات التي خُلق بها العالم (أو الحياة).

يا نفسُ ! إلى أين نحن سائرون ؟ لا يعلم ذلك إلّا الله. لكن الله قال على لسان أنبيائه: إنّ كلّ هذه المليارات المليارات مليارات، إنّما هي قوى محسوسة ملموسة مشهودة، بما فيها الجنس البشري، خلقها الله العليّ العظيم، كي يخرج في آخر المطاف الإنسان، الذي هو خليفة الله في أرضه، لكي يعرف هذا الخالق العظيم. إذ قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: << كنتُ كنزًا مخفيًّا فأردتُ أنْ أُعرف فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرف >>.

يا نفسُ ! إنّه جلّت قدرته لم يكتف بالقوى المحسوسة الملموسة المشهودة، بل خلق أيضًا المخلوقات النّورانيّة وهي الملائكة ، وأمرها أن تسجد لهذا الإنسان. بمعنى أنّ كلّ هذه الدّوحة العظيمة من الخلق مسخّرة لهذا الإنسان، الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي وصل إلى معرفة الله جلّ وعلا.

يا نفسُ ! يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: <<من عرف نفسه فقد عرف ربّه>>. وأتمنّى أن يساعد كتابي هذا (أسرار النّفس البشريّة) – بمختلف أجزائه - على معرفة النّفس، ومن ثمّ على معرفة الله سبحانه وتعالى. فسابقوا وسارعوا إلى الخيرات يا عباد الله يرحمكم الله !!! فقد قال حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ لَهَى عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ هَانَتْ عَلَيْهِ اللَّذَّاتُ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ >>.

يا نفسُ ! إنّ عمليّة الخلق الهائلة هذه، كما وصفناها بالمليارات المليارات، إنّما تنبع من إرادة ذلك الكنز الخفيّ المخفيّ، الذي لا تراه العيون، ولن تراه.

يا نفسُ ! لكنّ العيون ترى جوهر الإرادة هذه - في وجدانها وقلوبها - في تجلّياته أثناء عمليّات الخلق الهائلة، وتلمسها وتحسّها، أثناء هذه العمليّات الرّائعة، وتتأمّل المعاني العظيمة في تجلّياتها. فذلك يا نفسُ ! دليل على لطيف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

يا نفسُ ! ولولا الأنبياء والرّسل والأوصياء والأئمّة الطّاهرون والأولياء وعباد الله الصّالحون، لتاهت عقولنا إلى حيث لا ندري ! ولا نعلم بأيّ وادٍ نكون ! وقد وضع الإمام جعفر الصّادق عليه السلام النّقاط على الحروف، وبيّن هذه الحقيقة لتلميذه جابر بن حيّان بالتّفاصيل. وقد ذكرت ذلك في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام).

يا نفسُ ! ويصف أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين الإمام عليّ عليه السلام بدائع الله في خلقه وخضوع الأشياء وانصياعها له سبحانه وتعالى:

خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرٌ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ، هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا، وَكَيْفَ وَلَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا -مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا (أَشْبَاحِهَا) وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا- عَلَىٰ إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَىٰ إِحْدَاثِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ، وَعَجِزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِٱلضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا.

وَإِنَّ اللّٰه (وَإِنَّهُ) -سُبْحَانَهُ- يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الآجَالُ وَٱلأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَٱلسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إِلاَّ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ.

بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَىٰ الإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَأَّدْهُ (يَتَكَاءَدْهُ) صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ (مَا بَرَأَهُ وخَلَقَهُ)، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلإِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكَاثِرٍ، وَلاَ لِلإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ، وَلاَ لِلإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأْمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي (مِنْ) تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لاَ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَىٰ سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلٰكِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَحْشَةٍ إِلَىٰ حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَىٰ حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَىٰ غِنًىٰ وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَىٰ عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

يا نفسُ ! ويصف أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام بديع خلق الله في الخفّاش مبتدءًا ببيان العجز عن وصف الله تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ. هُوَ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً.

خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ (حكمته)، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلَ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَهَا بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذِّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلاَقِهَا !

فَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِٱلنَّهَارِ عَلَىٰ أَحْدَاقِهَا (حِدَاقِهَا)، وَجَاعِلَةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي إِلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ.

فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ (الصُّلُوعِ) فِي وِجَارِهَا، أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَٱلنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً، وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطَّيَرَانِ كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَىٰ مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً.

لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا (لَمْ) يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاَجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ تَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِٱلطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً.

يا نفس كنت نطفة وعلقة ومضغة

يا نفسُ ! يقول نبيّ الله إدريس عليه وعلى نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أفضل السّلام وأتمّ التّحيّات، في آخر الفصل الثاني من صحيفته معاذلة النّفس، وهي صحيفة من صحف إدريس عليه السلام:

وكذلك الإنسان المعقول إنّما هو القوّة الآتية في العضو الواردة مع المنيّ إلى الرحم ثمّ حينئذٍ ترد إليه القوّة المصوِّرة التي يمكن أن تصوّره بتوسّط الأجرام الإلهيّة. فإذا صار عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة وردت إليه حينئذٍ القوّة الثانية المتمّمة التي هي عقل بالفعل فسارت به إلى حدّ الكمال. فحينئذ تكون جميع أسبابه بالفعل بعد أن كانت في الابتداء: لا بالفعل، ولا بالقوّة. ثمّ انتقل إلى مرتبة كان فيها بالقوّة، ثمّ ذهب من رتبة القوّة إلى رتبة الفعل والكمال فصار حينئذٍ فاعلًا كاملًا، مصوّرًا متصوّرًا، ممثّلًا متمثّلًا. واعلمي يا نفسُ أنّ التّأمّل لهذه المعاني دليلٌ على لطيف حكمة مُبْدِع العالم جلّ جلاله وتقدَّسَتْ أسماؤه.

يا نفسُ ! إنّ المبدع جلّ اسمه كالناطق الفائض بما عنده من المعاني والجواهر كلّها للمستمعين منه، وليس كلّ المستمعين يفهمون عن المتكلّم، بل منهم من يحتاج إلى ترجمانٍ يؤدّي إليه ووسيطٍ يتوسّط بين الناطق والسّامع، وذلك لضعف تصوّر السّامع عن فهم القول. ومَنْ هو كذلك فهو أعجميٌّ لا يفهم حاجته إلّا بترجمان يفسّر له حقيقة القول. فلا تكوني، يا نفسُ، من الجواهر المحتاجة إلى الوسائط: فإنّ التّرجمان ربّما خان في تعبير الكلام، وغيّر القول وحرّفه. فاخرجي يا نفسُ من رتبة العجوميّة إلى رتبة الفصاحة، واقتني، يا

نفسُ، العلم قبل العمل، ومعرفة الثّمرة قبل غرس الشّجرة، لتحقّقي بالقول الثّبوت على العلم قبل العمل، فإنّ لك في ذلك راحة كبيرة وفائدة عظيمة.

يا نفسُ ! كيف يا ترى يصير الإنسان عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة، وهو في رحم أمّه، وهو في حال نطفة، ثمّ علقة، ثمّ مضغة مخلّقة، ثمّ مضغة غير مخلّقة، ثمّ خلق الله تعالى المضغة عظامًا ثمّ كسا العظام لحمًا !

يقول الله تعالى[1] : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا }.

ويقول تعالى[2] : { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }.

ويقول تعالى[3] : {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} .

---

[1] (سورة الحج ٥).

[2] (سورة المؤمنون ١٢ - ١٤).

[3] (سورة غافر ٦٧).

ويقول تعالى[1] : { أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى }.

[1] (سورة القيامة ٣٦ - ٣٩).

وهل يزيل العلم الحديث حيرتنا

يا نفسُ ! هناك في عمليّات تكوّن الجنين العجيبة، التي تجري في رحم الأم أسرار عظام، تُفسّر في العلم الحديث بظاهرة العجائب التي تكمن في الكروموسومات والجينات والفيروسات.

والفيروسات هي في منطقة وسطى بين الحياة واللاحياة، وهي كائنات على حافّة الحياة، وهي لا تتحرّك، رغم ذلك لها دور أساسيّ في نقل المادة الوراثيّة للخلايا الحيّة، لأنّها تقوم بالاستعانة بآليّات الخلايا الحيويّة، عن طريق دسّ دي إن إيه DNA أو ري إن إيه RNA أو ري إن إيه RNA فيروسيّ، ضمن المادة الوراثيّة للخلايا الحيّة.

وهي أيضًا تستفيد من آليّات الخليّة المضيفة، لنقل الـ دي إن إيه DNA و الـ ري إن إيه RNA، بما فيها من المعلومات الجينيّة، التي تخصّ تاريخ ماضي أجداد الإنسان من الجنس البشري.

ثمّ تتحوّل كلّ هذه المعلومات إلى الإنسان الجديد، بشكل أوصاف جنسيّة وجسميّة، وما أعجبها من معلومات ! بل هي أوصاف فعليّة، جنسيّة وجسميّة، أكثر منها معلومات. وما أعجبها من عمليّات تحيّر العقول والألباب !

يا نفسُ ! إنّ الفيروسات لا تمثّل كائنات حيّة، بل توصف بالجسيمات المعدية، لكنّها تبدي بعض خصائص الحياة، مثل القدرة على التّضاعف والتّكاثر، بالاستعانة بخلايا المضيف.

ولقد وفيت الكروموسومات والجينات والفيروسات حقّها من المعلومات الوافية، من وجهة نظر العلم الحديث، في الجزء السّابع من كتابي (أسرار النّفس البشريّة).

يا نفسُ ! هنا تتوقّف الحيرة عند العلم الحديث، لأنّه يظنّ أنّ هذه الجسيمات الصغيرة جدًّا جدًّا جدًّا (المتناهية في الصّغر)، التي تتجلّى بشكل كروموسومات وجينات وفيروسات و دي إن إيه DNA و ري إن إيه RNA، قد أزالت الحيرة.

ولكن يا ترى هل تزول الحيرة بوجود هذه الجسيمات !!!

لو اجتمعوا على خلق بعوضة لما قدروا

يا نفسُ ! أمّا حيرة الدِّين فهي أبديّة. نقول للعلم الحديث: شكر الله سعيك، فقد زدتنا حيرة إلى حيرة ! فهل تستطيع يا علم على أن تخلق بعوضة أو ذبابة أو نملة، ناهيك عن البشر السّويّ سيّد المخلوقات !

يا نفسُ ! يقول الإمام عليّ عليه السلام: خَضَعَتِ الأَشْيَاءُ لَهُ، وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظَمَتِهِ، لاَ تَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَتَمْتَنِعَ مِنْ نَفْعِهِ وَضَرِّهِ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ فَيُكَافِئَهُ، وَلاَ نَظِيرٌ لَهُ فَيُسَاوِيَهُ، هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا، حَتَّىٰ يَصِيرَ مَوْجُودُهَا كَمَفْقُودِهَا، وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَٱخْتِرَاعِهَا، وَكَيْفَ وَلَوِ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا -مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا، وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا [1] وَسَائِمِهَا[2] ، وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا[3] (أَشْبَاحِهَا) وَأَجْنَاسِهَا، وَمُتَبَلِّدَةِ [4] أُمَمِهَا وَأَكْيَاسِهَا[5] - عَلَىٰ إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ، مَا قَدَرَتْ عَلَىٰ إِحْدَائِهَا، وَلاَ عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَىٰ إِيجَادِهَا، وَلَتَحَيَّرَتْ عُقُولُهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ[6] ، وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ[7] ، وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً[8] حَسِيرَةً[1]، عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ[2] ، مُقِرَّةً بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا، مُذْعِنَةً بِٱلضَّعْفِ عَنْ إِفْنَائِهَا.

---

(١) بضم الميم، تلك التي تبيت في أوكارها.

(٢) تلك التي ترتع في المراتع.

(٣) أصناف أنواعها.

(٤) غبيّة.

(٥) ذكيّة.

(٦) ذهبت في التيه.

(٧) ضعفت.

(٨) ذليلة.

وَإِنَّ اللّٰه (وَإِنَّهُ) -سُبْحَانَهُ- يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحْدَهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ، كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذٰلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا، بِلاَ وَقْتٍ وَلاَ مَكَانٍ، وَلاَ حِينٍ وَلاَ زَمَانٍ، عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الآجَالُ وَٱلأَوْقَاتُ، وَزَالَتِ السِّنُونَ وَٱلسَّاعَاتُ، فَلاَ شَيْءَ إِلاَّ اللّٰهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الأُمُورِ.

بِلاَ قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا، وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَاؤُهَا، وَلَوْ قَدَرَتْ عَلَىٰ الإِمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا.

لَمْ يَتَكَأَّدْهُ [٣] (يَتَكَاءَدْهُ) صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ، وَلَمْ يَؤُدْهُ[٤] مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَبَرَأَهُ (مَا بَرَأَهُ وخَلَقَهُ)، وَلَمْ يُكَوِّنْهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ، وَلاَ لِخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَنُقْصَانٍ، وَلاَ لِلإِسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَىٰ نِدٍّ مُكَاثِرٍ[٥] ، وَلاَ لِلإِحْتِرَازِ بِهَا مِنْ ضِدٍّ مُثَاوِرٍ[٦] ، وَلاَ لِلإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ، وَلاَ لِمُكَاثَرَةِ [٧] شَرِيكٍ فِي شِرْكِهِ، وَلاَ لِوَحْشَةٍ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ إِلَيْهَا.

ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا، لاَ لِسَأْمٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي (مِنْ) تَصْرِيفِهَا وَتَدْبِيرِهَا، وَلاَ لِرَاحَةٍ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ، وَلاَ لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ، لاَ يُمِلُّهُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَىٰ سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا، وَلَـٰكِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ، وَأَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ، وَأَتْقَنَهَا بِقُدْرَتِهِ، ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا، وَلاَ اسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا، وَلاَ لانْصِرَافٍ مِنْ حَالِ وَحْشَةٍ إِلَىٰ حَالِ اسْتِئْنَاسٍ، وَلاَ مِنْ

---

(١) متعبة.

(٢) مغلوبة.

(٣) لم يكن صعبًا عليه.

(٤) لم يتعبه.

(٥) ندّ معارض.

(٦) ضدّ مهاجم.

(٧) الغلبة والسّيطرة.

حَالِ جَهْلٍ وَعَمًى إِلَىٰ حَالِ عِلْمٍ وَالْتِمَاسٍ، وَلاَ مِنْ فَقْرٍ وَحَاجَةٍ إِلَىٰ غِنَىً وَكَثْرَةٍ، وَلاَ مِنْ ذُلٍّ وَضَعَةٍ إِلَىٰ عِزٍّ وَقُدْرَةٍ.

كيف صار الإنسان عقلاً بالقوّة ذا غضب وشهوة

يا نفسُ ! يفعل الله جلّت قدرته كلّ ذلك، كما يقول أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: يَقُولُ لِمَا أَرَادَ كَوْنَهُ: « كُنْ » فَيَكُونُ، لاَ بِصَوْتٍ يُقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاءٍ يُسْمَعُ، وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ -سُبْحَانَهُ- فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ، لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً، وَلَوْ كَانَ قَدِيماً لَكَانَ إِلَهاً ثَانِياً، لاَ يُقَالُ: « كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ »، فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحْدَثَاتُ، وَلاَ يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ (بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا) فَصْلٌ، وَلاَ لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ، فَيَسْتَوِيَ الصَّانِعُ وَالْمَصْنُوعُ، وَيَتَكَافَأَ الْمُبْتَدَعُ وَالْبَدِيعُ.

فصار الإنسان في رحم أمه عقلًا بالقوة ذا غضب وشهوة، يعني قال تعالى: <<كن فيكون>>، فكان كلامه سبحانه فعلًا منه أنشأه لا بصوتٍ يُقرع ولا بنداءٍ يُسمع.

يا نفسُ ! كيف أصف لك العلم الحقيقي الذي هو الفعل، والعالم الحقيقي الذي هو الفاعل، والمتعلّم الحقيقي الذي هو من له قابليّة رؤية الحقيقة كما هي !

يا نفسُ ! أقول للمتعلّم الحقيقي: فانظر بعينك يا أيّها المتعلّم، وبجميع قابليّتك، كيف صار الإنسان في رحم أمّه عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة، ثمّ وردت إليه القوّة الثانية المتمّمة التي هي عقل بالفعل، وكيف سار به إلى حدّ الكمال !

فكانت جميع أسبابه بالفعل، بعد أن كانت في الابتداء لا بالفعل ولا بالقوّة. ثمّ انتقل إلى مرتبة كان فيها بالقوّة، بعد ما أصاب الحيوان المنويّ للرجل بويضة المرأة، فتحقّق التّخصيب، وتكاملت الكروموسومات والجينات التي وردت من الرجل والمرأة، وتحقّق انتقال دي إن إيه DNA و ري إن إيه RNA، وتحوّلت المعلومات الجينيّة إلى صفات فعليّة جنسيّة وجسميّة. كيف ! الله أعلم بها !!!

ثمّ ذهب من رتبة القوّة إلى رتبة الفعل والكمال، فصار حينئذٍ فاعلًا كاملًا، مصوّرًا متصوّرًا، ممثّلًا متمثّلًا.

واعلمي يا نفسُ ! إنّ الحقيقة تعرض نفسها، وما عليك إلّا التّأمل لهذه المعاني بقابليّة الفهم المباشر، كقابليّة جناح الطّير واستجابتها لإرادة الطير في الطيران، أو كقابليّة السّباحة عند السّمك واستجابتها لإرادة السّمك في السّباحة.

فالقابليّات تتفاعل وتتجاوب مع فعل الله، من دون صوت يُقرع ولا نداء يُسمع، وإنما الكلام هو فعل الاستجابة والتّفاعل. وهذا دليل على لطف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

ليس التّأمّل هو الفهم بالذهن وجمع المعلومات، بل التّأمّل هو التناغم مع مشيئة الله، وفناء العلم في المعلوم ، بحيث يكون علمك رؤية الحقيقة كما هي، والمحو في هذه الحقيقة في حيرة في حيرة في حيرة.

بل عجبت ويسخرون

يا نفسُ ! نعم هكذا يكون المتعلّمون الحقيقيّون، في عجَب وحيرة من أمر الله وروائع خلقه وبدائعه. إنّ الحقيقة تعرض نفسها في عَرَصَاتِ الوجود ، وما على المتعلّم إلّا التّأمّل لهذه المعاني بقابليّة الفهم المباشر، كقابليّة جناح الطّير واستجابتها لإرادة الطّير في الطيران، أو كقابليّة السّباحة عند السّمك واستجابتها لإرادة السّمك في السّباحة.

يقول الله تعالى[1] : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ }.

ما أعظم هذه الآيات الكريمة، وما أروع المعاني التي تعكسها من دقائق لطيفة في واقع هذا الوجود. وإنّ المرء ليتوقّف طويلًا - في خشوع وخضوع - أمام هذه الآيات التي هي في سورة الصّافات، في تدبّر وتأمّل لا ينتهيان.

فرجال الله دومًا في عجَب وحيرة من روائع خلق الله، لا في الآفاق والأكوان فحسب، بل أيضًا في أنفسهم من روائع ملكوت الله. فالله يريهم آياته دأبًا في الآفاق وفي أنفسهم، لا ينفكّون يشاهدون هذه الآيات في حيرة وعجَب، فَهُم فيها منجذبون، جذبات تكلّم عنها نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وآله حيث يقول: << جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ تُوَازِي عَمَلَ الثَّقَلَيْنِ >>. فهذه هي سمتهم التي لا تنفكّ عنهم، وهذا هو مقامهم.

ويمكن أن تعتري الإنسان حالة يتعجّب ويتحيّر فيها من روائع الملك والملكوت، ولكن الحالة دائمًا في تغيّر وتحوّل. أمّا إذا تطوّرت الحالات المتغيّرة إلى حالة ثابتة لا تتغيّر، فهي تسمّى المقام. فرجال الله بلا شك ولا ريب في هذا المقام. كذلك كانوا أصحاب الكهف، حيث يقول الله

[1] (سورة الصافات ١٢ - ١٤).

تعالى في حقّهم في سورة الكهف [1] : { أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا }. ويقول الله تعالى في حقّ محمّد صلوات الله عليه وآله[2] : { بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ }.

يرى الله تعالى نبيّه محمّدًا صلوات الله عليه وآله في عجَب وحيرة من روعة هذا الكون، وما يحمله من معجزات الخلق، ومن وفرة المخلوقات التي لا تنتهي. فهناك ملايين الملايين من الكائنات على سطح البسيطة، في وفرة وتنوّع وتعدّد، لا تعدّ ولا تحصى.

وهناك ملايين الملايين من الكائنات الصغيرة جدًّا، أو ما يسمّى الخلايا في داخلنا، وهناك مليارات المليارات من الجزيئات أو ما يسمّى المولوكولات في تكويننا، وهناك مليارات المليارات من الميكروبات والبكتيريا والفيروسات حوالينا وفينا، في وفرة وتنوّع وتعدّد، لا تعدّ ولا تحصى.

وهناك المليارات من نجوم وكواكب في القبّة الزرقاء، في وفرة وتنوّع وتعدّد، لا تعدّ ولا تحصى.

أراعي نجــومَ الليــلُ وهي كأنهــا قــواريرُ فيهــا زئبــق يترجــرجُ

وكلّ واحدة من هؤلاء البلايين من الكائنات الأرضيّة، ومن الجزيئات الصّغيرة في البدن أو ما يسمّى الخلايا، أو الميكروبات والجراثيم والفيروسات والبكتيريا، ومن النجوم الزّاهرة، والكواكب التي تدور حولها، كلّ واحدة منها تعدّ لوحدها عالمًا زاخرًا بالمعجزات الربّانيّة !!!

ناهيك عن روائع خلق الله في نفس الإنسان النّاطقة، التي سمّاها الإمام عليّ عليه السلام بالعالم الأكبر، وسمّاها الله تعالى خلقًا آخر، وتباهى بهذا الخلق الآخر، حيث يقول تعالى[1] : { ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ }.

---

[1] (سورة الكهف ٩).

[2] (سورة الصافات ١٢).

فلقد أثبت العلم الحديث أنّ الإنسان يختلف عن الإنسان الآخر، بسبب اختلاف الحامض النووي فيهما. وحتى النّملة الواحدة لا تشبه النّملة الأخرى، وحتى الذّبابة الواحدة لا تشبه الأخرى، وحتى البعوضة الواحدة لا تشبه الأخرى.

وحتى الجزيئات الحيّة الصغيرة جدًّا جدًّا، من الخلايا والميكروبات والبكتيريا، لا تشبه إحداهما الأخرى. فكلّ واحدة منها فريدة ونادرة من نوعها، فسبحان الله الجواد الكريم، الذي لا انتهاء لكرمه وجوده !!!

فهو لا ينسخ مخلوقاته نسخًا، بل هو بديع السّماوات والأرض، يخلق كلّ واحدة من هذه البلايين البلايين، فريدة ونادرة من نوعها !!!

إنّ الـذي سَمَـكَ السّـمَاءَ بَـنى لَنَـا بَيْتـــاً دَعَائِمُـــهُ أعَـــزُّ وَأطْـــوَلُ

يا نفسُ ! يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه: إنّ الإنسان جامع للملك والملكوت، وفيه نموذج من هذين العالمين، فكأنّ الإنسان نسخة مختصرة من الكتاب الكبير الإلهي، لأنّ جميع العالم كتاب كبير جامع لجميع المعلومات، وإنّ الإنسان نموذج منه، بل كلّ ما في العالم الكبير موجود في الإنسان الصغير.

ثمّ يقول: إنّ الإنسان من حيث نشأته الظاهريّة كتاب صغير منتخب من ذلك الكتاب الكبير. وأمّا الإنسان من حيث نشأته الباطنيّة، ومن حيث الكمال والإحاطة بالمعلومات الكليّة والجزئيّة، وإدراك المدركات العقليّة والحسّيّة، كتاب كبير كالعالم، بل هو أكبر من ذلك. ويستشهد بشعر مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وسيّد الوصيّين وإمام المتقين وقدوة العارفين الإمام عليّ عليه السلام:-

(١) (سورة المؤمنون ١٤).

دَواؤُكَ فيـــكَ وَمـــا تُبصِـــرُ وَدَاؤُكَ مِنـــكَ وَمـــا تَشـــعُرُ

أَتَزعُمُ أَنَّـــكَ جُـــرمٌ صَـــغير وَفيـكَ اِنطَـوى العـالَمُ الأَكـبَرُ

فَأَنـتَ الكِتـابُ المُبـينُ الَّـذي بِأَحرُفِـــهِ يَظهَـــرُ المُضَـــمَرُ

وَمـا حاجَـةٌ لَـكَ مِـن خـارِجٍ وَفِكـــرُكَ فيـــكَ وَمـــا تُصـــدِرُ

ما يعنيه السيّد هو انجذاب رجال الله في عالمهم الأكبر، وفي مقامهم الشّامخ المنيع، وعجَبهم وحيرتهم.

إذا رأوا آية يستسخرون

يا نفسُ ! أمّا في الطّرف الآخر، ترى الأقزام (الفكريين) لا يعلمون شيئًا، وكلّ واحد منهم يحسب نفسه علّامة الدّهر، ويزعم أنّه يعرف كلّ شيء، ثمّ يجلسون ويسخرون ويستهزؤون، ويطعنون بألسنتهم السّليطة في هذا وذاك، ويا ليتهم توقفوا عند هذا الحدّ، بل طالت ألسنتهم أولياء الله الصّالحين، **فَهُم يرفعون سيوفهم ورماحهم ويطعنون في أبدانهم وقلوبهم الطاهرة،** كما يقول السيّد حسين العالم قدّس سرّه في المجلس العشرين في فصل (با يزيد البسطامي) !!!

وإنّ لِسانَ المَرْء ما لم تَكُنْ لَهُ حَصاةٌ على عَوْراتِهِ لَدَلِيلُ

ويخاطبهم السيّد في نفس المجلس وفي نفس الفصل قائلًا: **تضيّعون حقائق الدِّين المحمدي، وأنتم لا تعلمون شيئًا، وما عندكم من علم، بل هي أسماء سمّيتموها، فيا ليتكم سكتّم لكان أحسن لكم !!!**

يا نفسُ ! فمتى ينتصف حليم من جهول ؟ ألا إنّ ترك الجواب على الجاهل جواب ! وإنّ نبح الكلاب لا يضرّ بالسّحاب !

ترنّح بالكلام عليّ جهلًا فصمت الصّالحين هو الجواب

يا نفسُ ! أما تسمعين إمامك عليًّا عليه السلام يقول في دعائه: << اَللَّهُمَّ اِنّي اَعُوذُ بِكَ أَنْ اُعادِيَ لَكَ وَلِيّاً >>. فإن لم يكن لكم دين فكونوا أحرارًا في دنياكم. أليس إمامنا ومقتدانا عليّ عليه السلام حريًّا بالتأسّي والاقتداء ؟

أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

يا نفسُ ! ترين محمّدًا صلوات الله عليه وآله يتكلّم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وعن معراجه إلى السّموات السّبع، وما عاين هنالك من روائع عوالم الغيب، ثمّ دنى فتدلّى فكان قاب قوسين أو أدنى، دنوّا واقترابًا من العليّ الأعلى !!!

يا نفسُ ! ومن طرف آخر، ترين أبا جهل (وهو يمثّل هؤلاء الجّهال في كلّ زمان ومكان)، يقول يا محمّد تدّعي أنّك قد عُرج بك إلى السّموات، فإذا كنت صادقًا، فارفع رجلك عن الأرض. فرفع محمّد صلّى الله عليه وآله رجله عن الأرض، فقال والآن ارفع رجلك الأخرى. فلمّا لم يستطع محمّد صلّى الله عليه وآله رفع رجله الأخرى، ضحك أبو جهل ومن حوله من قريش، وبدأوا بالاستهزاء والسّخرية، وأوصوا أولادهم الأشقياء بأن يرموه بالحجارة، حتى أثخن صلوات الله عليه وآله بالجّراحات.

فقال صلوات الله عليه وآله: <<ما أوذي نبيّ بمثل ما أوذيت>>. وقال صلوات الله عليه وآله: <<إلهي اغفر لقومي فإنّهم لا يعلمون>>. فكان أمر الله القاطع في سورة الحجر[1] : { إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ }. فأصابهم الخزي والعار في الدّنيا، وهم في الآخرة في عذاب الجّحيم. فيا أبا جهل ثكلتك أمّك أيّ جرد ترقع !!! [2]

يا نفسُ ! إنّ الذين يولون لبّ الأشياء اهتمامهم، ويفهمون الأشياء على حقيقتها موضوعيًّا قليلون جدًّا. قليلون من النّاس يتعاطون موضوعيّة الأشياء. كثيرون يتعاطون الصّورة المرسومة في أذهانهم للأشياء، التي نتجت عن ثقافتهم التي تعاطوها منذ الصّغر، وهي بعيدة جدًّا عن الموضوعيّة.

في كلّ زمان ومكان هناك جماعتان: جماعة وهم قلّة في فئة (عجبت)، وجماعة أخرى وهم كثر في فئة (يستسخرون). وفي كلّ زمان ومكان، هؤلاء الجماعة الكثر يجفون عظماء عصرهم، ويمجّدون عظماء الماضي.

---

[1] (سورة الحجر ٩٥).

[2] من كتابي قدوة الفقهاء والعارفين.

وَلَعَمْرُكُمُ جَفَتِ الْقُرَيْشُ أَخَاهُمُ

يا نفسُ ! كم لقي العظماء من جفوة من رجال زمانهم، كما ذكرت في كتابي السّموات السّبع (الأبيات من ١٥٩٤ إلى ١٦٠٥) [١] :

وَلَقَدْ جَفَوْا نُوحاً قُرَابَةَ أَلْفِهَا [٢] حَتَّى لَزَوْجَتُهُ وَمِنْ أَبْنَاهَا
وَيُلاقِي إِبْرَاهِيمُ مِنْ مِحَنٍ بِهَا حَتَّى لِمَنْ إِخْوَانِهِ عَانَاهَا
حَتَّى أَبُوهُ قَدْ جَفَا إِبْناً لَهُ قَدْ خَالَهُ [٣] الرَّحْمنُ فِي نَجْوَاهَا
وَلَقَدْ لَقَى لُوطٌ مَصَائِبَ قَوْمِهِ وَمُصِيْبَةٌ مِنْ زَوْجَةٍ أَدْهَاهَا
وَلَقَدْ جَفَوْا مُوسَى بِرَدِّ جَمِيلِهِ بِحِجَارَةٍ بِجَبِينِهِ وَحَصَاهَا
وَبَلاءُ عِيسَى مِنْ يَهُودِ زَمَانِهِ حَتَّى الْيَهُوذَا قَدْ جَفَا عِيسَاهَا
وَلَعَمْرُكُمْ جَفَتِ الْقُرَيْشُ أَخَاهُمُ قَدْ جَرَّعَتْهُ مِنْ الْبَلا شُدَّاها [٤]
وَفِدَاهُ أُمِّي مَا تَأَذَّى مُرْسَلٌ مِنْ قَوْمِهِ مِثْلَ الَّتِي لاقَاهَا
وَلَقَدْ جَفَوْا أَوْلادَهُ فِي عِتْرَةٍ فَرَضَتْ وِلاهَا الآيُ [٥] فِي قُرْبَاهَا

---

[١] صفحات ١٦٤-١٦٥.

[٢] قرابة ألف سنة كما جاء في القرآن الكريم الآية: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ } (سورة العنْكبوت ١٤).

[٣] خاله: صاحبه، صادقه.

[٤] الشدى: الشدة.

[٥] ومنها الأية الثالثة والعشرون من سورة الشورى الآية ٢٣: { قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى}، وقد قال فيهم الإمام الشافعي:-

يا آل بيت رسول الله حبّكم فرض من الله في القرآن أنزله

قَتَلُـــوهُمُ سَـــلَبُوهُمُ وَسَـــبَوهُمُ حَمَلُـــوا رُؤُوسَهُـــمُ بِرَأْسِ قَنَاهـــا [1]
قَتَلُـــوهُمُ فِي كُلِّ رُكْـــنٍ بِالـــثَّرَى وَنَسُـــوا مَـــوَدَّتَهُمْ وَحُسْـــنَ وِلاهـــا
وَجَفَـــوْهُمُ بِقَطِيعَـــةٍ فِي رِحْمِـــهِ [2] رِحْمِ الرَّسُـــولِ وَمَـــا اتَّقَـــوْا عُقْبَاهـــا

يا نفسُ ! رجال الزّمان يمدحون عظماء الماضي، لا لأنّهم يفهمونهم، ولكن لأنّهم تعرّضوا لثقافة تمجيد الماضي من صغرهم، فَهُم يمدحون عظماء الماضي كالببغاء.

يا نفسُ ! لو رجع هؤلاء العظماء إلى زماننا الحاضر، بأسماء أخرى، لجفوهم كما جفا هؤلاء العظماء رجال زمانهم. لأنّ رجال الزّمان متمسّكون بالأسماء والرّجال، ومبتعدون عن موضوعيّة الأشياء. هؤلاء متمسّكون بالرّجال ومبتعدون عن الحقّ. هكذا دأبهم دائمًا أبدًا.

يا نفسُ ! كان الإمام عليّ عليه السلام يقول لهم: <<اعرف الحقّ تعرف أهله >>. ولكنّهم بالعكس دائمًا يعرفون (الأهل !) حسب رأيهم، ثمّ على هذا المقياس يعرفون (الحقّ !) حسب رأيهم.

يا نفسُ ! الببغاوات كثيرة في هذا العالم، قد سجّلوا أصوات داعياتهم في ذاكرتهم منذ نعومة أظفارهم، وقد تلوّث فهمهم بغسل الدّماغ الذي تعرّضوا له. وهم لا يفهمون الحقيقة على موضوعيّتها، إلّا من رحم ربّي !

يا نفسُ ! جفوة النّاس امتحان الله لهؤلاء القلّة، الذين هم أولياء الله. انظري يا نفسُ ! كيف جفا رجال مكّة محمّدًا صلوت الله عليه وآله، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا رجال المدينة ورجال الكوفة الإمام عليًّا عليه السلام، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا رجال أورشليم عيسى عليه السلام، إلّا القلّة القليلة ! وكيف جفا بنو إسرائيل موسى عليه السلام، إلّا القلّة القليلة !

---

[1] القنا: الرّمح.

[2] الرَّحْمُ أو الرَّحِمُ: القرابة.

يا نفسُ ! معاصرو عيسى يجفون عيسى ويمدحون موسى، لأنّ موضوع موسى عندهم غسيل دماغ، تعرّضوا له منذ طفولتهم. وهكذا دواليك ... نفس الأسلوب ونفس النّهج في كلّ زمان ومكان !!! ولو أولوا الموضوعيّة حقّها، لرأوا أنّ عيسى وموسى يقولان نفس الشيء، وهما على نفس الخط.

يا نفسُ ! ومعاصرو عليّ عليه السلام يجفون عليًّا ويمدحون الأنبياء، لأنّ موضوع الأنبياء عندهم غسيل دماغ، تعرّضوا له منذ طفولتهم. ولو أولوا الموضوع حقّه، لرأوا أنّ عليًّا عليه السلام والأنبياء على نفس الخط.

يا نفسُ ! يجفون عظماء عصرهم حسدًا منهم وحقدًا، ويمدحون الماضين، لأنّهم قرأوا عن مديحهم منذ نعومة أظفارهم. فَهُم كالببغاوات يردّدون ما سمعوه وما قرأوه، إلّا من رحم ربّي.

يا نفسُ ! وأكبر دليل على ما أقوله هو ما صحّ من الرّوايات بشرط وجود ٣١٣ من الصّالحين لظهور المهدي المنتظر عجّل الله تعالى فرجه. فالواضح أنّ العدد لم يكتمل، وأنّ أكثر الذين يُظهرون الولاء والحبّ للإمام المنتظر عليه السلام لا يملكون أهليّة لمناصرته، وأنّ حبّهم وولاءهم محض ادّعاء.

اللّه أكبر

يا نفسُ ! تحدث حوالينا كلّ هذه العجائب والبدائع، ونحن لا نعجب من هذه العجائب والبدائع، ولا نكون في حيرة ! بل لا نكون في حالة المحو، وفي حالة الحكمة العظمى. هذا العجَب وهذا المحو يتجلّى في حالة هذه الكلمة العظمى (اللّه أكبر)، حيث يصغر كلّ شيء أمام اللّه.

يا نفسُ ! إذا تيقّنّا أنّ كلّ شيء أصغر وأصغر من اللّه، فمن المحال أن تتبعثر أفكارنا وتذهب إلى أشياء غير اللّه. نكون على يقين من أنّ اللّه أكبر من كلّ همومنا وغمومنا، ومن كلّ ثرواتنا ومقاماتنا، ومن كلّ شهواتنا ورغباتنا.

يا نفسُ ! إذا كنّا في هذه الحالة، حيث اللّه أكبر من كلّ شيء، نكون في حالة خضوع وخشوع تامّ، ومتحرّرين من أيّ نوع من الغرور والتكبّر والتجبّر. نشعر بعبوديتنا للّه بتمام معنى الكلمة. وهذه هي العبادة الحقّة، وهذه هي الهداية الحقّة. غير هذا ادّعاء محض، ولو طالت صلاتنا إلى ٢٤ ساعة في اليوم، ما بين قيام وقعود، وركوع وسجود.

يا نفسُ ! ما فائدة الصّلاة يا ترى ! وأنت فكرك في الدّنيا، وأنت في عبوديّة الدّنيا، خارجة عن عبوديّة اللّه ! أيّ عبادة هذه إن لم تكوني أنت - فكرك وروحك وجسدك وبشرك وعضلك وعصبك وهمّك وغمّك وعلاقتك وشهواتك ورغباتك - في عبوديّة اللّه بالتمام والكمال !

يا نفسُ ! إنّ المبدع جلّ اسمه كالناطق الفائض بما عنده من المعاني والجواهر. فيضه يتدفّق في الوجود بإبداعاته، ينطق بأعماله وعجائب خلقه في كلّ شيء، مثلاً في إبداعاته في خلق الحيوان المنويّ، والكروموسومات والجينات و الـ دي إن إيه DNA و الـ ري إن إيه RNA والفيروسات الدقيقة جدًّا جدًّا، وبكميات هائلة، أكثر من نجوم السّماء ومن رمال الصّحاري والقفار. وقد ذكرت شيئًا من ذلك في الجزء السابع من كتابي أسرار النفس البشريّة، حيث تجلّت لنا إبداعات اللّه وعجائب خلقه.

يا نفسُ ! فإذا نطق الله فبأفعاله ينطق، لا بصوت يُقرع ولا بنداء يُسمع. وإذا تحدّث إلينا تحدّث بتجلّيات وجوده في كلّ مكان وزمان، وفي عجائب خلقه في الآفاق والأنفس.

يا نفسُ ! وسوف ترين في كلام أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، في فصول لاحقة، عجائب الخفّاش والنّملة والجرادة والنّخلة، والسّماء والهواء والرّياح، والماء والحجر، والشّمس والقمر، والنّبات والشّجر، واختلاف الليل والنّهار، وتفجّر البحار، وكثرة الجبال، وطول القلال، وتفرّق اللغات، والألسن المختلفات، وعجائب الطّير المسخّرة لأمره، أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَٱلنَّفَسَ، وَأَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا عَلَىٰ النَّدَىٰ وَالْيَبَسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَىٰ أَجْنَاسَهَا، فَهٰذَا غُرَابٌ، وَهٰذَا عُقَابٌ، وَهٰذَا حَمَامٌ، وَهٰذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِٱسْمِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُ (كَفَلَ) بِرِزْقِهِ، وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا.

عجائب الخفّاش

يا نفسُ ! ويصف أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام بديع خلق الله في الخفّاش مبتدءًا ببيان العجز عن وصف الله تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً [1] إِلَىٰ بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ. هُوَ اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَىٰ الْعُيُونُ، لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً[2] ، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً[3] .

خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَىٰ غَيْرِ تَمْثِيلٍ[4] ، وَلاَ مَشُورَةِ مُشِيرٍ، وَلاَ مَعُونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ[5] ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ[6] .

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ (حكمته)، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ الْحِكْمَةِ فِي هٰذِهِ الْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ الْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ الْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ، وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا[7] ، وَتَتَّصِلَ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهَانِ الشَّمْسِ إِلَىٰ مَعَارِفِهَا[8] ، وَرَدَعَهَا[1] بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ الْمُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا[2]، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا[3] عَنِ الذِّهَابِ فِي بُلَجِ ائْتِلاَقِهَا[4] !

---

(1) طريقًا.

(2) فيكون له نظير.

(3) فيكون له نظير في الأوهام.

(4) على غير خارطة سابقة.

(5) فأجاب أمره ولم يردّه.

(6) وسلّم له ولم يعارض.

(7) طرقها ومسالكها.

(8) بأن تصل إلى ما تعرفه تحت ضوء الشمس.

فَهِيَ مُسْدَلَةُ الْجُفُونِ بِٱلنَّهَارِ عَلَىٰ أَحْدَاقِهَا (حِدَاقِهَا)، وَجَاعِلةُ اللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ فِي إِلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ [٥] ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ الْمُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ [٦]

فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَهَا، وَبَدَتْ أَوْضَاحُ نَهَارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِهَا عَلَىٰ الضِّبَابِ[٧](الضُّلُوعِ) فِي وِجَارِهَا[٨] ، أَطْبَقَتِ الأَجْفَانَ عَلَىٰ مَآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ[٩] بِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنَ الْمَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَٱلنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً، وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَىٰ الطَّيَرَانِ كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ[١٠] ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَىٰ مَوَاضِعَ الْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً.

لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا (لَمْ) يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاَجِئٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّىٰ تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ [١١] عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

---

(١) منعها.

(٢) في أمواج أضوائها.

(٣) وخبّأها في مخابئها.

(٤) وضح أضوائها.

(٥) أسدف الليل: أظلم.

(٦) سواد ليله.

(٧) جمع الضبّ وهو حيوان من الزحّافات شبيه بالحرذون ذنبه كثير العقد.

(٨) جحر.

(٩) تغذّت.

(١٠) جناح وقصب الجناح.

(١١) طرقها ومسالكها.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ[1] ، وَ تَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِٱلطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً.

[1] وبدون نموذج خلقه غيره قبله.

معرفة الثمرة قبل غرس الشجرة

يا نفسُ ! فالله جلّت قدرته كالناطق الفائض، ولكن يا ترى أين المستمعون ! هذا الفيض المتدفّق في هذا الوجود البحت البسيط، وهذا الكلام المجلجل في عَرَصَاتِ الوجود، لا يسمعها إلّا القابليّات الصّافية النقيّة، التي تأخذ من الله مباشرة، لا يحتاجون إلى ترجمان ولا وسيط، يتلقّون إبلاغات الله بكلّ وجودهم في عجَب وحيرة لا تنتهي.

يا نفسُ ! هم من الجواهر الذين يلتقون بالجواهر الواردة من خالقهم. فلا تجعلي يا نفسُ ! بينك وبين الله وسيطًا وترجمانًا، فربّما خان التّرجمان في تعبير الكلام، وغيّر القول وحرّفه، كما حدث عند اليهود والنّصارى، من التّحريفات في التّوراة والإنجيل والزّبور ومزامير داود، وكما حدث من التّفسيرات والتّأويلات الخاطئة للكتاب والسّنّة عند المسلمين.

يا نفسُ ! واقتني العلم قبل العمل ومعرفة الثّمرة قبل غرس الشّجرة. واحرصي على أن لا تكون الثّمرة شيئًا ينتمي إلى هذه الدّنيا الزائلة الفانية، فإنّ ربّك يتكفّل بها، فلا تهتمّي بالدّنيا، فإنّ للبيت ربًّا يحميه، واجعلي كلّ همّك الآخرة.

يا نفس ! يقول حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله: << تَفَرَّغُوا مِنْ هُمُومِ الدُّنْيَا مَا اسْتَطَعْتُمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّهِ أَفْشَى اللَّهُ ضَيْعَتَهُ ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أُمُورَهُ ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ ، وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ إِلا جَعَلَ اللَّهُ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تَفِدُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ ، وَكَانَ اللَّهُ إِلَيْهِ بِكُلِّ خَيْرٍ أَسْرَعَ >>.

وقال صلوات الله عليه وآله وسلّم: << إنَّ العَبْدَ إذا كانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ كَفَّ اللَّهُ تَعَالى عَلَيْهِ ضَيْعَتَهُ؛ وَجَعَلَ غِنَاهُ في قَلْبِهِ فَلا يُصْبِحُ إلاّ غَنِيّاً، وَإذا كانَ هَمُّهُ الدُّنْيا أفْشَى اللَّهُ تَعَالى ضَيْعَتَهُ؛ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ؛ فَلا يُمْسِي إلاّ فَقِيراً؛ وَلا يُصْبِحُ إلاّ فَقِيْرَاً >>.

وقال صلوات الله عليه وآله وسلّم: << مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ لَهَى عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ يَرْقُبِ الْمَوْتَ لَهَى عَنِ اللَّذَّاتِ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ >>.

وقال صلوات الله عليه وآله وسلّم: << مَا أَخَذَتِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ إِلا كَمَا أَخَذَ مِخْيَطٌ [1] غُرِسَ فِي الْبَحْرِ مِنْ مَائِهِ >>.

هذا هو قدر الدّنيا ! وهذه هي ضآلتها ! إذا قارنتها بالآخرة. فمثل الآخرة كمثل البحر، ومثل الدّنيا كماء بقيت على إبرة، غرست في البحر.

[1] إبرة الخياطة.

الانقطاع إلى الله

يا نفسُ ! إن كانت الثّمرة التي تطلبينها شيئًا من الدّنيا، فكلّ مجهوداتك لتحقيق ذلك، واقتناء تلك الثّمرة، كبناء يعتمد على اللبنات الأساسيّة في البناء، فإن اعوجّت لبنة اعوجّ البناء كلّه. فاحرصي على أن تنتخبي من البداية الثّمرة المناسبة، التي تنفعك في دار الخلود.

يا نفسُ ! يقول حبيبي رسول الله صلوات الله عليه وآله: << مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّ مَؤُونَةٍ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، وَمَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَّلَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا >>.

يا نفسُ ! فاحرصي على أن يكون هدفك من البداية الله الله لا غير، والانقطاع إلى الله الله الله لا غير. اعقدي العزم على هذه الثّمرة المقدّسة من البداية، ثمّ ابدئي طريقك إلى غرس شجرتها، واتعبي وانصبي على رعايتها حقّ رعايتها، وجاهدي الجهاد الأكبر، حتى تكمّلي عملك الشاقّ، مصحوبًا بالذّكر الدّائم المستديم، فإنّك يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ[1].

يا نفسُ ! وهذا يتطلّب منك الإخلاص الخالص، بأن لا يكون بينك وبين الله وسيط وترجمان، فإن استهدفت الله من البداية، وأن يكون الله هو ثمرة كدحك وجهدك، فتلك هي الشّجرة الصّالحة المقدّسة.

يا نفسُ ! فابدئي عند ذلك بغرس الشّجرة، وتعلّمي كلّ فنون البستانيّ، تحت رعاية حكيم يرشدك[2] ، أو وليّ مرشد [3] يهديك إلى طريق يوصلك إلى الله، بأن تهيّئي لنموّ هذه الشّجرة المقدّسة كلّ الوسائل اللازمة، حتى تنمو نموًّا طيّبًا، وتخرج الثّمرة الطيّبة في نهاية المطاف.

---

[1] (سورة الإنْشقاق ٦).

[2] إشارة الى حديث الإمام زين العابدين عليه السلام: <<هلك من لم يكن له حكيم يرشده>>.

[3] إشارة إلى الآية ١٧ من سورة الكهف: { وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا }.

يا نفسُ ! فخذي أقصر الطّرق للوصول إلى الله، فإنّ الموت قريب، والعمل كثير، واعملي بجدّ واجتهاد، بإخلاص تام، لا رياء فيه ولا نفاق.

يا نفسُ ! يقول حبيبي رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلّم: << مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ >>. وقال صلوات الله عليه وآله: << أَخْلِصْ دِينَكَ، يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ >>. وقال صلوات الله عليه وآله: << أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إِلا مَا خَلَصَ >>. وقال صلوات الله عليه وآله: << طُوبَى لِلْمُخْلِصِينَ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى تَنْجَلِي عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظَلْمَاءُ >>. ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: <<الإخلاص سِرّ من سرّي استودَعْتُه قلبَ مَن أحببتُ من عبادي >>.

يا نفسُ ! فكلّ دعاء أو مناجاة أو صلاة تخرج من القلب تصل إلى الله، وإلّا ما تجاوزت الصّلاة أو الدّعاء أو المناجاة سقف بيتك. فالموت قريب، والوقت قليل، والعمل كثير، فلماذا تضيّعين وقتك فيما لا يعنيك، وفيما لا يعني هدفك، وهو الوصول إلى الله تعالى.

يا نفسُ ! والنشأة التي يمكنك غرس هذه الشّجرة المقدّسة فيها هي هذه الدّنيا، فهي مزرعة الآخرة، كما قال حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. وبعدها الموت، ألا تفكّرين يا نفسُ ! في الموت ؟

يا نفسُ ! يقول حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: <<إِنَّ القُلُوبَ تَصدَأُ كَما يَصدَأُ الحَدِيدُ إِذا أَصابَهُ الماءُ، قالُوا: يا رَسُولَ الله، وما جِلاؤُها؟ قال: كَثرَةُ ذِكرِ الموت، و تلاوة القرآن>>.

ويقول الله تعالى في الحديث القدسي الذي ورد في زبور داود عليه السلام: << أيّها النّاس لا تغفلوا عن الآخرة، ولا تغرنّكم الحياة الدّنيا لبهجتها ونضارتها، لو تفكّرتم في منقلبكم ومعادكم، وفي خشونة الثّرى ووحشة القبر وظلمته، وذكرتم القيامة وما أعددت فيها للعاصي، لقلّ كلامكم وضحككم، ولكثر بكاءكم وذكركم واشتغالكم، ولكنّكم غفلتم عن الموت، ونبذتم عهدي وراء ظهوركم،

واستخففتم بحقّي كأنّكم لستم بمسيئين ولا محاسبين، وكأنّكم لا تموتون وكأنّ دنياكم باقية لا تزول ولا تنقطع... >>.

وجاء في حكمة آل داود عليه السلام: << ويحك كيف لا تذكر لحدك، وانفرادك فيه وحدك>>.

يا نفسُ ! ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: << يابن ادم أجلك يضحك بأملك، و قضائي يضحك من حذرك، و تقديري يضحك من تدبيرك، وآخرتي تضحك من دنياك، و قسمتي تضحك من حرصك، فإنّ رزقك موزون معروف مكتوب مخزون، فبادر للموت بعملك الخير قبل الموت فإنّ رزقك لا يأكله غيرك، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا[1] . إنّ الدنيا اليوم لك وغدًا لغيرك. يا نفسُ ! إنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة >>.

فانظري يا نفسُ ! في فصل لاحق كيف تحدّث الماضون من العلماء الإغريق عن الموت.

[1] (سورة الزخرف ٣٢).

الخوف من الموت

يا نفسُ ! يبدو أنّ العلماء الإغريق أكثر واقعيّة من علماء الغرب اليوم، فإنّهم كانوا يفكّرون بالأجل الوشيك المحتوم الذي ينتظرهم. ولكن علماء الغرب اليوم يقلقون لما ربّما سوف يحدث للعالم بعد بلايين السّنين ! أليس هذا غريبًا ؟

يا نفسُ ! أعتقد أنّ العقل الجماعي قد هيمن عليهم، بشكل نسوا فيه أنفسهم كأفراد، فطغى عليهم بشكل جعل منهم غير واقعيين، ينسون مصيرهم الوشيك المحتوم، الذي سوف يحدث قطعًا ولا مناص منه البتّة، ويقلقون من مصير العالم بعد بلايين السنين ! وربّما سوف يحدث، وربّما لن يحدث أبدًا !

فمثلًا يقول [1] هوجان Hogan: وهذا معناه أنّنا اليوم إذا ترقّبنا الكون عن كثب، وانتظرنا عدّة بلايين من السّنين رأينا العجَب العجَاب ، بأنّ كلّ شيء حوالينا يتطاير بعيدًا عنّا بسرعة أكبر وأكبر، في ظاهرة من التفتّت والدّمار الكامل. وفي نهاية المطاف، نبقى وحيدين فريدين في هذا الكون.

وفيما يلي نذكر ما كان يفكّر فيه العلماء الإغريق قبل ٢٣٠٠ سنة، من مخاوف واقعيّة خطيرة من الموت. نقتبس هذه الوقائع من مناظرة الإمام الصّادق عليه السلام مع تلميذه جابر بن حيان:

سأل جابر: أكان أفلاطون Plato و تلميذه أرسطو Aristotle يعتقدان بالموت ؟

قال الإمام الصّادق عليه السلام: هذان الفيلسوفان كانا يونانيين إغريقيين. وكان الإغريق يعتقدون بأنّ الموت مرحلة من مراحل الحياة الطويلة، ولم يكونوا يعتبرون الموت نهاية الحياة. ولذلك فإنّ تابوت الميّت عندهم كان يزدهر برسوم الحياة المليئة بالنشاط ـ كرسوم الرّقص والصّيد والمشاهد الجنسيّة ـ وكانت هذه الرّسوم والنقوش توحي بأنّ الذي في التّابوت حيّ لا ميّت.

[1] مقتبس من بعض نشرات ناسا في الإنترنت.

وعلى الرغم من أنّ الإغريق كانوا لا يعتقدون بالموت، إلّا أنّ علماءهم لم يكونوا غافلين عن الموت. كان أرسطرخس Aristarchus[1] يونانيًّا وكان منجّماً، بيد أنّه كان له ضلع في الحكمة. وكان يفكّر في الموت ويقول:-

لا أستطيع أن لا أفكّر في المئات من الرّجال والنّساء، الذين كانوا أحياء قبلي، أين ذهبوا ولماذا لا يراهم أحد ولا يسمعهم أحد ؟ وكيف أن لي في السّعادة حصّة أسد في أنني حيّ يرزق، ألتذّ بحسن الحياة وجمالها، بين مئات الآلاف من أولئك الرّجال والنّساء الذين ماتوا ولم يرجع منهم أحد.

وهل سوف أموت مثلهم أم أنّي لن أموت، وسوف أستمر في لذّات الحياة؟ أحسّ بأنّني أتميّز عن مئات الآلاف من أولئك الرّجال والنّساء الذين ماتوا، لأني أحبّ الحياة. ولعل أولئك الذين ماتوا، ذهبوا لأنّهم لم يحبوا الحياة، ولم يريدوا الاستمتاع بملذّاتها.

وعلى الرّغم من أني أحسّ نفسي موجودًا استثنائيًّا، وأحمل الأمنيات الكبيرة بأنّي سوف أبقى دائمًا حيًّا، إلّا أنّي أقول لنفسي في بعض الأحيان: إن أنا متّ ماذا يحصل لي ؟ وهل سأتمكّن بعد موتي من أن أتمتّع ببهجة الحياة وسرورها كما أتمتّع بها الآن ؟ وهل سوف ألتذّ بالطّعام الهنيء بعد الموت ؟ وهل سوف أهنأ بعد الموت بالاستماع إلى ألحان الموسيقى كما أهنأ بها اليوم ؟

---

(1) أرسطرخس الساموسي، أريستارخوس، كان من أهل ساموس، وكان يعيش في القرن الثالث قبل الميلاد (٣١٠ - ٢٣٠ ق . م). كان من علماء الدّرجة الأولى في علم النّجوم. وكان أوّل من قال بحركة الأرض حول الشّمس، وذكر الأسباب الحقيقية لتوالي الليل والنهار. وكان الإمام الصّادق عليه السلام نفسه أيضًا يقول بحركة الأرض حول الشّمس وحول نفسها، وتوالي الليل والنهار بسبب ذلك. بيد أنّ العلوم الرّسميّة في القرون الوسطى كانت لا تقبل بهذه الأفكار.

أم سأكون أنا أيضاً بعد الموت كالدّواب التي تموت ؟ وهل الدّجاجة التي أكلت من لحمها أمس سوف تحيا بعد الموت ؟ وهل العجل الذي ذبحناه في اليوم التالي وطبخنا من لحمه، وأكل منه العديد من الأقرباء والأصدقاء، يستطيع أن يأمل في الحياة ثانية بعد الموت ؟

ولكني أستدرك نفسي قائلًا : أنا أختلف عن العجل كثيرًا، لأنّي إنسان وذلك العجل حيوان، والإنسان يستحقّ أن يحيا بعد الموت، لأنّ الإنسان يملك العقل والعلم، بيد أنّ العجل لا يملك العقل والعلم. وإذا لم أبق بعد الموت، لم يخطر ببالي اليوم، بأنني سوف أحيا بعد الموت، وسوف أعرف نفسي وهويّتي أيضًا.

إنّي لا أحبّ أن لا أعرف نفسي بعد الموت، لأنّني إذا لم أعرف نفسي، فإنّ ملذّات الحياة التي كانت من نصيبي سوف لا تكون ملذّاتي. ويجب أن أعرف نفسي بعد الموت، حتى أعرف بأنّني أنا الذي ألتذّ من مباهج الحياة لا غيري.

واستطرد أرسطرخس Aristarchus قائلًا :

وهل من الممكن أن أكون أنا أيضًا مثل مئات الآلاف من الأوراق الصّفراء المغمومة، والتي تسقط من الأشجار في فصل الخريف، ثمّ تضمحلّ بسرعة، أضمحلّ كما تضمحلّ هي ولا يبقى منّي غير الغبار ؟

إنّه لا يبقى غير الغبار من الأوراق الصّفراء التي تسقط من الشّجر في فصل الخريف. يخطر ببالي أحيانًا بأنّه لن يبقى منّي أيضًا غير الغبار. بيد أنّني أسمع من عمق وجداني بأنّه ليس كذلك، وبأنّني أختلف تمامًا عن الأوراق

الصّفراء، التي تسقط من الشّجر في فصل الخريف، وبأنّني أسمى من العجل الذي ذبح وطبخ لحمه، وأكل الأقارب والأصدقاء من طعامه الهنيء.

أتصوّر بأنّ إحدى مزاياي بالنسبة للعجل، وبطريق أولى بالنسبة للأوراق الصّفراء التي تسقط في فصل الخريف، هي أنّي أحس بمرور الزّمن وهي لا تحسّ.

وما أكثر ما خطر ببالي ما هو الزّمن الذي أحسّه. والآن يخطر ببالي بأنّ الزّمن كالنهر الجاري، وأنا في هذا النّهر كالصّخر، إذا وصل إليّ الماء لا يتوقف، ولكن حركته تتباطأ. وبعد توقف مدّة ما يمرّ عنّي، وهذا زمان حالي، والذي هو حياتي.

الجانب الأعلى من النهر، والذي يجيء منه الماء، هو زمان الماضي. والجانب الأدنى من النهر، الذي يذهب نحوه الماء، هو زمان المستقبل. وأنا في اللحظة التي أعترض فيها الماء، فأنا زمان الحال، وماء النهر الذي يتصادم بي يتبدل إلى زمان الحال أيضًا.

أنا لا أحبّ زمان الماضي، لأنّ الماضي لا يتعلّق بي، ولا أقدر أن أستفيد منه.

ولا أحبّ زمان المستقبل، لأنّه خارج نطاق قدرتي، ولا أقدر أن أستفيد منه.

حياتي الواقعيّة هي زمان الحال، وأنا دائمًا أعيش في زمان الحال، وكلّ لحظة أتذكّر بأنّني حيّ، فتلك اللحظة هي زمان الحال، لا الماضي ولا المستقبل.

إنّني أعرف أن لا حياة أخرى لي إلّا في زمان الحال، وعمري الذي يمكن أن أسمّيه عمري هو زمان الحال ليس إلّا.

إنّ عمري في الماضي هو كطير طار من قفصه وذهب، وهو الآن لا يتعلّق بي.

وعمري في المستقبل هو كطير يطير الآن في الفضاء، ولما أقبض عليه بعد، حتى أضعه في القفص.

وأنا فقط أملك زمان الحال، وهو كاملًا في قبضتي واختياري، أستفيد منه كما أشاء.

زمان الحال يبقى لي ما دمت حيًّا، وكلّ لحظة أتذكر فيها أنّني حيّ، فهو زمان الحال.

إنّني أتعجّب كيف أنّ بعض الأشخاص يعدّون زمان الماضي من عمرهم، وهم لا يعلمون أنّ زمان الماضي لا يتعلّق بهم.

وإنّني أتعجّب كيف أنّ بعض الأشخاص يحسبون زمان المستقبل من عمرهم، وهم لا يعلمون أنّ زمان المستقبل الذي لم يأت بعد، كمثل ثروة لم نحصل عليها بعد، ولذلك لا نستطيع اعتبارها ثروتنا.

أتعجّب كيف أنّ بعض الأشخاص لا يرون هذه الحقيقة الواضحة، ولا يقبلون بأنّ العمر ليس هو إلّا زمان الحال لا غير. والذي يريد الاستفادة من عمره، عليه أن يستفيد من زمان الحال فقط.

إنّني أرى رأي العين أولئك الذين يؤخّرون عمل اليوم إلى غد، ويؤجّلون سرور اليوم وبهجته وحسنه وجماله إلى غد. إنّهم يغفلون عن هذه الحقيقة بأنّ الغد لا يتعلّق بهم، لأنّهم لم يملكوها بعد. إنّ عمر الإنسان هو زمان

الحال ، وهو متواصل ما دام العمر لم ينته بعد، ولا يتيسّر للإنسان لحظة في الحياة إلّا وهي في زمان الحال.

إنّ الأمس يعني زمان الماضي له معنى في المخاطبات اليوميّة ليس إلّا، ولا يوجد له معنى في ذاته. لأنّ الأمس ليس موجودًا، والشيء الذي لا يوجد كيف يمكن أن يكون له مفهوم ؟

إنّ الغد له معنى في المخاطبات اليوميّة ليس إلّا، ولا يوجد له معنى في ذاته، لأنّ الشيء الذي لم يوجد بعد، كيف يمكن أن يكون له مفهوم ؟

إنّ النّاس لا يعلمون بأنّ الغد (إذا وصل إلينا) فهو زمان الحال. وإنّني إذا أشرفت على ظهر الغد، فإنّني أرى ظهر الغد مثل زمان الحال، لا مثل أي يوم آخر.

إنّ الأمس والغد في حياتي وحياة كلّ البشر، لهما مفهوم في المخاطبات اليوميّة ليس إلّا، أمّا في غير ذلك فلا معنى لهما في ذاتهما ولا مفهوم.

كلّ لحظة من عمري هي زمان الحال ما دمت حيًّا، ولا أستطيع أن أقول عن كلّ لحظة من عمري إنّها أمسي أو غدي.

إنّ أبي أيضًا لم يستطع أن يقول – طالما كان حيًّا - بأنّ لحظة عمره هي أمس أو غد.

إنّ ولدي أيضًا، وهو الآن في شرخ شبابه، لا يستطيع أن يقول ذلك. وكل لحظة من عمره هي زمان الحال ليس إلّا.

وعندما كنت شابًا لم أستطع أن أفهم ما قاله ديمقريطس Democritus[1] بأنّه وأباه وابنه ولدوا جميعًا في لحظة هي زمان الحال ليس إلّا.

واليوم فإنّني لا أشكّ قط في كلام ديمقريطس Democritus ، بل إنّني معتقد بأكثر من ذلك، بأنّه ليس فقط أبي وابني، بل كلّ أفراد البشر يولدون في لحظة هي زمان الحال، ويموتون في لحظة هي أيضًا زمان الحال.

إنّني أخاف أن أخسر زمان الحال، والذي هو عمري الواقعي.

وأحيانًا يخطر ببالي أليس الموت مثل النوم ؟ فلماذا لا أخاف النوم، بيد أنّي أخاف الموت؟

عندما أنام أفقد وعيي ولا أعلم بأنّ النائم هو أنا، وإنّني أنسى هويّتي عندما أكون نائمًا.

فلماذا أخاف الموت، والذي هو نوع آخر من النّوم ؟

أنا أواسي نفسي ! ولكن هذه المواساة لا تهدّئني، ولا ينقشع خوفي من الموت، لأنّي أعلم قبل النّوم بأنّي سأستيقظ بعد النّوم، ولكنّني سوف لا أستيقظ من الموت.

---

[1] اسمه اليوناني (ديمقريطس) واسمه باللغة الفرنسية (دموقريت). ولد في عام ٤٦٠ قبل الميلاد (حوالي ثلاثين سنة قبل أفلاطون) وتوفي في عام ٣٧٠ قبل الميلاد ، وزمان وفاته هو قرن واحد تقريبًا قبل زمان (أريستارخوس). كان (ديمقريطوس) من المفكرين العظام للبشريّة، وهو أوّل من قال بوجود (الذرّة)، وأنّ العالم خلق من ذرات صغيرة جدًّا لا يمكن رؤيتها، ولأنّها متناهية في الصّغر فلا يمكن تقسيمها أيضًا. وهذه الذّرات الصّغيرة في حركة دائمة. وهو أوّل من قال: لا يمكن كشف الحقيقة عن طريق العواطف، لأنّ العواطف تغرينا. وضرب مثلًا بصوت الرّعد قائلًا: إنّ حاسة السّمع لا تسمعنا من الرّعد إلّا صوته المرعب، في حين أنّ حقيقة الرّعد هي غير صوته المرعب.

وإذا كان أحد قد استيقظ يومًا ما من الموت، فمن بين مئات الآلاف الذين كانوا قبلي في اليونان فقط، فليستيقظ واحد منهم فقط ويخبرني ماذا جرى عليه بعد الموت.

إلّا أنّ الموت نوم لا يقظة بعده، ولا يمكنني أن أواسي نفسي بأنّني سأستيقظ، لأنّني أعلم بأنّ جسدي هو أداة يقظتي، وأنّه سيندثر بعد الموت، وليس الذي يندثر هو فقط لحمي وجلدي ودمي، بل أيضًا إنّ عظامي سيتحوّل إلى غبار[1].

ولأنّ جسمي لن يبقى، فبديهيّ بأنّني سوف لن أستيقظ، وهذا الشّيء الذي يخوفني من الموت. لو كنت أعرف بأنّ جسمي بعد الموت سوف يبقى، لما خفت الموت كثيرًا. لأنّي كنت آمل أن أستيقظ يومًا ما من سبات الموت. فما دامت أداة اليقظة موجودة، يكون هناك أمل ما في اليقظة.

لقد سمعت بأنّ المصريين يحنّطون موتاهم بحيث تبقى أجسادهم ولا تندثر، وتوجد هناك مؤسّسات مخصوصة لأجل هذا الغرض.

ولكن هنا في اليونان، لا أحد يعلم شيئًا عن طريقة حفظ الأجسام بعد الموت، وإذا كان يعلم فلا يسمح بحفظ الجسد بعد الموت، بحيث يبقى

---

(1) سوف تستغربون إذا قلت لكم بأني فتحت تابوت كوروش العظيم في إيران فما وجدت هنالك إلّا غبارًا ! كيف ؟ ربّما تتذكّرون المهرجان العظيم الذي نظمه الشّاه بمناسبة الاحتفال بميلاد كوروش العظيم عند قبره على تلّة في (برسي بوليس) قرب شيراز ! لكن بعد الثّورة في إيران أهمل هذا المكان. فزرت قبر كوروش في سنة ١٩٧٩ بعد فترة قصيرة من قيام الثّورة، حيث صعدت التلّة وكان لدي فضول أن أرى كوروش. ففتحت تابوته وما وجدت هنالك إلّا غبارًا ! هكذا هي نهاية عظماء التّاريخ !!!! علمًا بأنّ كوروش العظيم هو الذي فتح بابل قبل ٢٥٠٠ عام، وجاء ذكره ومدحه وثناؤه في العهد القديم من التّوراة.

الجسد ولا يندثر، لأنّهم يعتقدون بأنّ الآلهة الإغريق لا يحبّذون هذه الطّريقة، لأنّها طريقة قد وضعها إله أجنبي. وإنّه لا يجوز اتّباع طرائق آلهة الأجانب في اليونان.

وأحيانًا يخطر ببالي أن أذهب إلى مصر في أيام شيخوختي وأموت هناك، حتى يحفظ جسدي ويحنّط بعد الموت ولا يندثر، وآمل أن أستيقظ يومًا ما بعد سبات الموت.

ولكن سرعان ما أصحو من هذه الأفكار والخواطر، لأنّني لا أقدر أن أقنع نفسي بأن يضمّ جسدي تراب غير تراب اليونان، ولا أن أدفن بطريقة غير طريقة آلهة اليونان. لأنّي إذا دفنت بغير الطّريقة اليونانيّة أكون قد خنت وطني.

وأحيانًا أقول لنفسي أليس الأَوْلَى أن أموت في وطني بشرط أن يُحفظ جسدي بعد موتي، وأدفن بالطريقة المصريّة بشكل استثنائي ؟ ولكنّي أنصرف عن خواطري هذه، لأنّ الانحراف عن طريقة الآلهة الإغريق يعتبر خيانة للوطن.

هل في الإمكان أن تعطيني الآلهة بصيصًا من الأمل بأنّني سوف أعرف نفسي بعد الموت، وأعرف نفسي كما أنا الآن، وقد قضيت قسمًا من عمري في علم النّجوم، واكتشفت قواعد حركاتها ؟ ولو أنّ الآلهة أفاضوا علي بهذا الأمل لغمرني الفرح والسّرور، ولاتجهت إلى القبر راقصًا إن أمكن ذلك.

إذا حصل لي اليقين بأنّي سوف أعرف نفسي بعد الموت، أستطيع في هذا العالم أن أعزف عن ملذّات الطّعام والشّراب، وأقتنع بالجوع والعطش، إن وجدت في العالم الآخر لذّات الطّعام والشّراب.

إنّني ألتذّ بالطّعام والشّراب والنّوم في هذا العالم، لأنّني أرى عمري قصيرًا، وإذا كنت أملك الخلود، فما حاجتي إلى ملذّات الطّعام والشّراب والنّوم ! لأنّ الخلود هو السّعادة الكبرى، لأنّني لو عرفت نفسي بعد الموت، وعرفت أنّني أملك الخلود، أكون مالكًا لكلّ شيء، ولا تهمّني آنذاك الملذّات الصّغيرة.

ولو أنّني لم أعرف نفسي بعد الموت، فالخلود لا يعنيني في شيء، لأنّه خلود غيري لا خلودي أنا. إنّني أعلم بأنّ جبل أولمبيا الذي تقيم فيه الآلهة خالد، ولكن هل يعنيني أنا خلود هذا الجبل في شيء ؟ طبعًا لا ! لأنّه خلود الآخرين وليس بخلودي.

ويمكن أن يخطر ببالي، إذا أنا لم أعرف نفسي بعد الموت، فأنا شريك ذلك العالم في الخلود لأنّني خالد، وبطريق أولى شريك جبل أولمبيا في الخلود. وإذا كان كذلك، لم أرض أيضًا بذلك، لأنّ المهمّ عندي هو (أنا). وإذا لم يكن (أنا)، فالخلود لا يعنيني في شيء، كما أنّ خلود جبل أولمبيا اليوم لا يعنيني.

يا جابر !: لقد سردت لك شيئًا من أقوال أرسطرخس Aristarchus، حتى تعلم بأنّه كان هناك في اليونان من كان يفكّر في الموت، وأنّ ثلّة من الشّخصيات في الماضي فكّروا أحيانًا في موضوع الموت[1] .

[1] من كتابي هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام.

العقل الروحاني

يا نفسُ ! يقول نبيّ الله إدريس عليه السلام: فإذا صار عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة، وردت إليه حينئذٍ القوّة الثانية المتمّمة، التي هي عقل بالفعل، فسارت به إلى حدّ الكمال.

يا نفسُ ! ما هو العقل بالفعل يا ترى ! العقل درجات: منها عقل المعاش الذي يكسب به الإنسان الرّزق، وكلّ ما زاد عقل المعاش تحسّنت أوضاع الرّزق عند الإنسان.

لكنّه يا نفسُ ! عقل ماديّ لا يميل إلى المجرّدات. فهو لا يؤمن بما يقوله الأنبياء عليهم السّلام، فإذا آمن يكون ذلك تعبّدًا لا عن إيمان صحيح.

أمّا العقل الرّوحاني فيقسّمه الإمام جعفر الصّادق عليه السلام إلى أربع درجات، حيث يقول عن القرآن الكريم ومدى قبول الناس له وانجذابهم إليه: القرآن أربعة: << عبارة وإشارة ولطائف وحقائق >>.

أمّا العبارة فهي للعوامّ، فإنّ فصاحة القرآن الكريم وبلاغته تؤثّر على كثير من النّاس وتوقظ روحانيّتهم، وهم العوام. وكذلك أكثر النّاس في زمن الرسول صلوات الله عليه وآله كانوا من العوام، وانجذبوا إلى كلام الله بفضل فصاحة القرآن وبلاغته. فإنّما هم يتفاعلون مع البلاغة، ومن ثمّ ينجذبون إلى معاني القرآن الرّوحيّة. وهذا هو العقل الرّوحاني في بداياته.

أمّا الإشارة فهي للخواصّ، حيث الخواصّ يدركون من القرآن الكريم إشارات لا يفهمون ماهيّتها، ولكنّهم يشعرون في داخل ذواتهم وبواطنهم بأنّها الواقع، وهم الخواصّ. وهذا هو الخطوة الثانية من العقل الرّوحاني.

أمّا اللطائف فهي لأولياء الله، حيث تتناغم أرواحهم مع هذه اللطائف، ويستعيدون ذكريات (ألستُ)[1] ، ذكريات العهد والميثاق والإقرار بربوبيّة الله، ويستشفّون منها طرق الخلاص من المادّة. وهم أولياء الله. وهذا هو الخطوة المتقدّمة من العقل الرّوحاني.

أمّا الحقائق فهي للأنبياء، حيث أنّهم يشهدون ما يقوله القرآن الكريم، يرون معانيه واضحة بيّنة على شاشة بصائرهم ووجدانهم. فالقرآن لهم شهود واضح بيّن، يرون معانيه رأي العين، ويقولون إنّا على بيّنة من ربّنا. وهذا هو قمّة العقل الرّوحاني.

[1] قال الله تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ } (سورة الأَعراف ١٧٢)

المعرفة الخالدة

يا نفسُ ! وقد ذكرت في مقدّمة كتابي (السّموات السّبع) الآتي:

السماء الثانية: هي الطور النفسيّ، وسمتها الغالبة هي الإيمان والعقل الرّوحاني والمعرفة الخالدة. تبدأ نورانيّة القلب تنجلي في هذا الطّور والمقام، وتبدأ همّة المرشد بأن تؤتي ثمارها في هذا الجلاء القلبيّ، وتبدأ التّزكية عملها في نفسه الأمّارة، التي تنقلب إلى نفس لوّامة، على كلّ فعلة وعلى كلّ فكرة وعلى كلّ هفوة لسان وزلّة جنان. يبدأ برؤية ذنوبه والشّعور بها، وينطلق الضّمير حرًّا يحاسبه على ذنوبه. العقل الماديّ أو عقل المعاش يترك مواقعه للعقل الرّوحاني أو عقل الخلود، ويجد امتداده اللانهائي وزحفه القويّ في عالم الخلود والرّوحانيّات، وذلك بقوّة العشق لخالقه وربّه، ويتألّق نور الحقّ في الباطن وتنفتح البصيرة.

وهناك فصل في كتابي السّموات السّبع يسمّى "العقل الرّوحاني"، (الأبيات من ٢٥٦ إلى ٢٦٨) صفحة ٤٢ يقول:

أَوَ مَـــا رَأَيْـــتَ نَعِـــيمَ دَهْـــرِكَ فَانِيـــاً ... مَـــا لِي وَحُـــبُّ هَـــوَى نَعِـــيمٍ فَنَاهـــا

فَلْيَرْتَـــقِ الْعَبْـــدُ الْمُرِيـــدُ لِوَجْهِـــهِ ... ضَحُّـــوا لَهُ مِـــنْ مُـــدْبِرَاتِ دُنَاهـــا

هَـــذِي قَـــرَابِينٌ فَضَـــحُّوا عَلَّهَـــا ... قُبِلَـــتْ فَفَـــاضَ الْـــوَدْقُ [1] مِـــنْ عَلْيَاهـــا

لا تَهْتَـــدِي شَجَـــرٌ إِلَى بَعْـــثٍ لَهَـــا ... إِنْ لَمْ تُسَـــاقِطْ فِي الْخَرِيـــفِ رِدَاهـــا

[1] الودق: المطر.

فَـــإِذَا أَرَدْتُمْ طَـــيَّكُمْ دَرَجَاتِهَـــا مُوتُـوا [1] عَسَـى أَنْ تَبْلُغُـوا مَحْيَاهـا

فَـــإِذَا أَرَدْتَ بِأَنْ تُعَـــلَّمَ عِلْمَهَـــا عِـــلْمَ الْمَنِيَّـــةِ سَـــابِقاً لِمَنَاهـــا [2]

ذُبْ فِي سُرَى رَجُـــلٍ فَـــنَى فِي رَبِّـــهِ وَخِزَانَـــــةِ الْأَسْرَارِ فِي أَخْفَاهـــــا

فَالْمَوْتُ فِي الْمَحْـوِ [3] الَّذِي غَسَلَ الَّتِي وَرِثَـتْ نُقُـوشَ الرَّمْـلِ مِـنْ هَيُولاهـا [4]

فَـــالْمَوْتُ يُوسِـــعُ عَقْلَـــكُمْ وَيُنِـــيرُهُ مِيزَانُهَـــا وُضِـــعَتْ بِرَفْـــعِ سَمَاهـــا [5]

فَالْبَعْـــثُ فِي الْمَـــوْتِ الإِرَادِيِّ فَقُـــمْ وَانْشُـــدْ حَيَـــاةَ الْخُلْـــدِ فِي أُخْرَاهـــا

فَالْبَعْـثُ يُوهِـبُ عَقْلَـكُمْ نُـورَ الْحِـجَى وَسَـعَتْ [6] سَمَـاءَ الـرُّوحِ نُـورُ حِجَاهـا

فَمَلَكْـــتَ مِـــيْزَاناً لِمَـــنْ عَلْيَائِهَـــا مَـيَّزْتَ نُـوراً مِـنْ ضَـبَابِ [7] دُجَاهـا

مَـــيَّزْتَ حَقَّـــاً مِـــنْ ضَـــلالَةِ بَاطِـــلٍ مَـيَّزْتَ غَيّـاً [8] مِـــنْ رَشَـــادِ جَلاهـا

---

(1) <<موتوا قبل أن تموتوا>> (الحديث النبوي الشريف).

(2) المنى: الموت.

(3) علم المحو هو علم العرفان الذي يغسل النّفس من النّقوش الزّائفة.

(4) الهيولي: المادة.

(5) إشارة إلى الأية السّادسة من سورة الرّحمن الآية ٧: { وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ }.

(6) وسعه: بسطه وكثره. يقال (وسع عليه) إذا أغناه.

(7) ضباب جمع ضبابة وهي السحابة التي تغشى الأرض.

(8) الغي: ضد الرشد.

الدِّين شيء جميل

يا نفسُ ! فإذا كان الدِّين لطائف وحقائق، فإنّ الإنسان يجد في الدِّين جمالًا لا يوصف، لأنّه يجد فيه الكمال والنّظام بشكل رائع. تمامًا كمشاهدة الرّسم على الجدار، والذي له شكل هندسيّ منظّم. أنت تجدين لذّة في مشاهدة هذا الرّسم، لأنّك ترينه منظّمًا وكاملًا.

يا نفسُ ! يقول الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في سياق محاورته مع تلميذه جابر بن حيّان: إنّ بعض الحكماء والفلاسفة اليونانيين ذهبوا بعيدًا، واعتقدوا بأنّ الفكر هو جزء من المادة، وقالوا بأن لا وجود للفكر من دون مادة، كما أن لا وجود للعطر والرّائحة الزكيّة في مشامّنا من دون الورود والزهور. وإذا ذهبت المادة ذهب الفكر أيضًا.

بيد أنّهم أبطلوا نظريّتهم بهذا الكلام، لأنّ الأصل في الحكمة، في زمن اليونانيين وحتى يومنا هذا هو كالتالي:

لا يبيد شيء في العالم

إلّا أنّ شكل الأشياء يتغيّر

يا نفسُ ! كذلك الإنسان لا يفنى، ولكنّه بعد الموت يتعرّض لتغيّرات الشّكل، وأيضًا يتغيّر فكر الإنسان، كما يتغيّر الإنسان نفسه، وبدون شكّ يبقى الإنسان وفكره، ولكن بشكل آخر. والذي يبقى بعد الموت هو الرّوح، وهو صفة الإنسان المعنويّة.

يا جابر: إنّ المؤمن ليسعد ويجد لذّة في فهمه بأنّ أصول دينه حقّ. وهذه اللذّة جزء من فطرة الإنسان، وأنّ الإنسان يجد لذّة في كلّ شيء منظّم وكامل.

يا جابر: أما ترى هذا الرّسم على الجدار، وكيف أنّه شكل هندسي منظّم ! أنت تجد لذّة في مشاهدة هذا الرّسم، لا لأنّك تعرف الهندسة، وتعرف من أيّ الأشكال الهندسيّة هو هذا الرّسم، ولكن لأنّك تراه منظّمًا وكاملًا. والذين لا علم لهم بالهندسة يجدون أيضًا لذّة في مشاهدة هذا الرّسم، لأنّهم يرونه منظّمًا وكاملًا.

الأطفال أيضًا يستمتعون بمشاهدة هذا الرّسم، لأنّ شكله المنظّم والكامل يدخل نوعًا من الهدوء والطّمأنينة في نفوسهم.

لو كان هذا الرّسم غير منظم، وكانت خطوطه مشوّشة ومشوّهة لا تحظى بشكل هندسي مقبول، ولا تشبه من قريب أو بعيد الأشياء المألوفة عندنا، فهل كنّا نجد لذّة في مشاهدتها ؟

ليس فقط أنّنا لا نجد لذّة في مشاهدة رسم مشوّش ومشوّه، بل إنّ ذلك يكدّر مزاجنا، وإنّ عيوبه تسدل علينا ستارًا من الغمّ والنكد، تمامًا مثل الطعام الذي تقرف منه ذائقتنا ومعدتنا.

كذلك الحقائق الدِّينيّة عندما نفهمها نجد لذّة فيها، لأنّنا نراها كاملة وبدون عيب ونقص. وحينما يكون شيء ما كاملًا وبدون نقص وعيب (ماديًّا كان أو معنويًّا) نراه جميلًا. نحن ننبسط من جمال الحقائق الدِّينيّة.

إنّ العوام لا يحظون بنور العلم، ولذلك أنتهز كلّ فرصة كي أُفهِم النّاس، بل أُشجّعهم على تحصيل العلم. الحقائق الدِّينيّة عميت على العامّة، وهم لا يستطيعون أن يجدوا لذّة في فهمها. إنّ

ذلك لا ينحصر في الدِّين الإسلامي فقط، بل بالأحرى إنّ كلّ الأديان التي أنزلها الله قبل الإسلام لم تُعرض ولم تُبسّط، بحيث يفهم العامّة حقائقها ويجدوا لذّة فيها[1] .

[1] من كتابي هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام.

اللطائف والحقائق

يا نفسُ ! فإذا وصل العقل بالفعل إلى حدّ الكمال فهو اللطائف والحقائق، ويسمّى العقل الرّوحاني.

يا نفسُ ! يتمتّع الأنبياء بهذا المستوى من الشّهود، فإذا تكلّموا فمن هذا المنطلق يتكلّمون.

يا نفسُ ! يقول نبيّ الله إدريس عليه السلام: فإذا صار عقلًا بالقوّة ذا غضب وشهوة، وردت إليه حينئذٍ القوّة الثانية المتمّمة، التي هي عقل بالفعل، فسارت به إلى حدّ الكمال.

ولتوضيح هذا المعنى الذي بيّنه نبيّ الله إدريس عليه السلام، أضرب مثلًا علّه يقرّب المفهوم إلى الأذهان. لأنّ هذا المعنى لا ينحصر في الإنسان فقط، وما الإنسان إلّا عالم مصغّر من العالم الكبير. هذا المعنى يشمل كلّ شيء، وكلّ العمليّات التي تجري في هذا الوجود. هكذا شاء ربّنا، ونحن مسلّمون لمشيئة ربّنا. ما علينا إلّا أن نوضّح للناس ما هذه المشيئة، حتى يستوعبوها قدر الإمكان، كلّ على قدره.

أضرب لك مثال فاكهة التفّاح، التي تتذوّق حلاوتها وطعمها اللذيذ. يا ترى أين كانت في الابتداء، وكيف صارت بالقوّة، ثمّ كيف صارت بالفعل ثمرًا جنيًّا !

أصبحت أسبابها بالفعل، بعد أن كانت في الابتداء لا بالفعل ولا بالقوّة. ثمّ انتقلت إلى مرتبة كانت فيها بالقوّة، وهذه المرتبة ظاهرة للعيان أمام عيوننا، ألا هي بذر التفّاح، الموجود في بطن التّفّاح.

يا نفسُ ! إنّ في البذر جميع خارطة التّفّاح، التي سوف يكون التّفّاح عليها. فيبقى في مرتبة القوّة أمدًا طويلًا، حتى تغرسي البذرة في التّراب، وتسقيها بالماء، وتعرّضيها للهواء، وتغذّيها بالسّماد، حتى تصير كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ[1] .

حتى يتحوّل شجرة كبيرة، تحمل لا تفّاحًا واحدًا، بل كمّيّات كبيرة من فاكهة التّفّاح. ويدخل التّفّاح في رتبة الفعل، ويتحوّل إلى الكمال، بعد ما ينضج، في صورة التّفّاحة الكبيرة، حمراء اللون، على نفس الهيئة التي تكون فيها باقي التّفّاحات.

وذكر مولاي ومعلمي الرّباني الشيخ صادق العنقا قدّس سرّه في كتاب السَّحر صفحات ٦٥-٦٦:

> ولأنّ الهويّة الأصيّلة ليست في هيئة محدودة، قابلة للرؤية بعين الناظر، فالنتيجة هي أنّ آثارها الوجوديّة الملموسة يعتبرها النّاس أصيلة. فلنضرب مثلًا مبسّطًا لتقريب المعنى إلى ذهن القارئ. خذ النّواة مثلًا، فإنّ كلّ مختصّات الشّجرة ومشخّصاتها الطبيعيّة، تكمن في النّواة التي لم تُزرع بعد، وفي عالمها الحياتي الذي ينطوي فيها.
>
> فهي تحمل في طيّاتها جميع القابليّات، وعوامل الرّشد والتّكثير والشّكل، وتناسق الأجهزة الحياتيّة للشّجرة. فهذه النّواة الصغيرة وعالمها الحياتي هي هويّة الشّجرة الثّابتة الوجوديّة.
>
> فمن نظر إلى الشّجرة وأغصانها، وأوراقها وأثمارها، وطول سيقانها، وضخامة جذعها، فليبحث في هذه النّواة (إن استطاع ذلك)، وفي كلّ جوانب عالمها

[1] (سورة الفتح ٢٩).

الحياتي، القدرة الحاكمة في خريطة هذه الشّجرة بديعة المنظر، واختصاصاتها المنضبطة. وهذا الأمر البتّة ليس من المسائل المحسوسة والملموسة .

الطبع مصيدة الأولياء

يا نفسُ ! ما هو الفرق بين اللطائف والحقائق يا ترى ! هو الفرق بين أن تستعيد الرّوح ذكرياتها عن ميثاق العبودية لله والإقرار بربوبيّة الله، وبين العبوديّة الخالصة، ونيل السّلطان، والنفاذ من أقطار السّموات والأرض، محرّرة من كلّ القيود والسّلاسل والأغلال، وعلى الأخصّ تلك التي تتعلّق بالطّبع والعقبة الكؤود في طبيعة الإنسان.

يا نفسُ ! فكما أنّ الثّقب الأسود في قلب السّماء مصيدة الأنوار، حيث لا يمكن للأنوار أن تنفلت، وحيث تقع تحت جاذبيّة الثّقب الأسود كاملة لا فكاك منها، إلّا ما ندر ! كذلك الطّبع مصيدة الأولياء، تصيد الأولياء، إلّا من رحم ربّي !

يا نفسُ ! إذا كان سرّ الفكاك من الجاذبيّة هو الخفّة، كذلك سرّ الفكاك من سلطان الطّبع هو الخفّة الرّوحية التي تعبر الصّراط بكلّ سهولة، والتي هي أحدّ من السّيف وأدقّ من الشّعرة. أو بعبارة أخرى، أن تكوني يا نفسُ ! الرّوح المجرّد، أو أن تكوني جسمًا مثاليًّا مطلقًا لا شائبة فيه.

وكما ذكرت في كتابي السّموات السّبع (الأبيات من ١٧١١ إلى ١٧١٣):

وَصِرَاطُنَا [١] كَالسَّيْفِ تَقْطَعُ عَابِراً ... إِنْ كَانَ فِي قِطْمِيرِ [٢] ثِقْلِ هَوَاهَا
وَكَشَعْرَةٍ ضَاعَ التَّعَادُلُ فَوْقَهَا ... إِلَّا بِخِفَّةِ طُهْرِ رُوحِ هُدَاهَا
وَلَعَمْرُكُمْ ثَقُلَتْ مَوَازِينٌ بِمَا ... عَمِلُوا بِعِرْفَانِ التُّقَى وَجَلَاهَا

يا نفسُ ! والجسم المثالي هو الجسم الأثيري للإنسان، وهو جسم الإنسان الحقيقي، الذي يبقى بعد موت البدن. وهو شفّاف ولا يُرى بالعين، وإنّما يراه في بعض الأحيان من كانت عنده

[١] الصّراط أشد من السّيف وأدق من الشّعرة.

[٢] القطمير: القشرة الرّقيقة بين النّواة والتّمرة. يعني حتى إن كان في شيء قليل من ثقل الهوى وحبّ النّفس.

موهبة الصّفاء والشّفافية، وهذه الموهبة يمكن تنميتها في الإنسان بواسطة السّير والسّلوك. والبدن ما هو إلّا تصوير ماديّ منه في هذه النشأة الأولى.

يا نفسُ ! إذا لم أستودعك أسراري، فيا ترى أين أجد مستودعًا لأسراري !! يا نفسُ ! وإلى هذا السّرّ يشير مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام حيث يقول: << العبوديّة جوهرة كنّهها الرّبوبيّة >>.

يا نفسُ ! كم هذه الجوهرة العظيمة خفيفة عند النّاس ! لا يعرفون لها قدرًا ولا وزنًا. يا نفسُ ! هل حقًّا هكذا الجوهرة صعبة المنال ؟

ذكر الله تعالى ذلك قائلًا جلّ من قائل[1] : { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ }.

وليس السّلطان والله إلّا الخروج من أثقال الطّبع والعقبة الكؤود. تمامًا كالصّاروخ إذا انطلق بسرعة ما حرجة، خرج من جاذبيّة الأرض، إلّا أنّه يبقى دائرًا حول الأرض، لا ينطلق من مداره إلى أقطار السّموات والأرض. اللهم إلّا إذا زادت سرعته كثيرًا عن السّرعة الحرجة. كذلك السّالك يجب أن تزيد سرعة سيره كثيرًا عن السّرعة الحرجة، حتى ينفذ من أقطار السّموات والأرض.

يا نفس ! اسمعي هذه الترنيمات عن هذا الكنه وعن هذا المثال من كتابي السّموات السّبع (الأبيات من ١٨٠١ إلى ١٨٣٦) :-

وَالْكُنْـــهُ [2] فِيهَـــا مَاؤُهَـــا سَـــيَّالَةٌ وَالسِّـــرُّ فِيهَـــا الْوَصْـــلُ فِي رُجْعَاهـــا
فَهِمُـــوا الْحَقِيقَـــةَ وَالْأُمُـــورَ جَلِيَّـــةٌ كُشِـفَتْ عَـنِ الْحَـدَقَاتِ سُمْـكُ غِشَـاها

[1] (سورة الرحمن ٣٣).

[2] كنه الشيء: جوهره وحقيقته وأصله وقدره وغايته، أي أنّ الماء هو الكنه ويكون بشكل قطرة ونهر وبحر ومحيط وسيل ولُجّة وجليد وسحاب ورطوبة وضباب وبخار وغيرها، فالأشكال تختلف أمّا الكنه فواحد.

وَرَأَوْا لَـــفِي هَالاتِهَـــا أَسْرَارَهَـــا ... وَجَـــدُوا لَـــفِي أَسْرَارِهَـــا مَنْجَاهـــا
نَفَذُوا مِنَ الجِسمِ السَّمِيكِ بِكَدْحِهِمْ ... نَفَـــذُوا إِلَى لُطْـــفِ الصَّـــدَى وَرُؤَاهـــا
وَهُـــوَ اللَّطِيـــفُ وَهُمْ هُمُ فِي لُطْفِـــهِ ... سَـــبَحُوا عَشِـــيَّةَ لَـــيْلِهِمْ وَضُحَاهـــا
رَأَوُا اللَّطَـــائِفَ وَانْجَلَـــتْ أَسْرَارُهَـــا ... كُشِفَ الْحِجَابُ بَلِ اسْتَرَقَّ[1] غِطَاها
فَهُـــمُ أَحَـــنُّ عَـــلَى جَنِـــينٍ مِثَـــالِهِمْ ... مِـــنْ أُمِّهِـــمْ بِجَنِينِهَـــا بِحَشَـــاها
وَهُمُ أَحَـــاطُوا بِانْفِتَـــاحِ بَصِـــيرَةٍ ... بِخُلُـــودِ عَـــيْشٍ مِثَـــالِهِمْ وَبَقَاهـــا
رَأَوُا الْمِثَـــالَ لَـــفِي رِيَاضَـــةِ لَـــيْلِهِمْ ... وَجِهَـــادِ سَهْـــرٍ فِي خُلُـــوصِ دُعَاهـــا
وَسُهَـــادِ عِشْـــقٍ بِانْقِيَـــادِ عِنَـــانِهِمْ [2] ... وَطَهُـــوْرِ ذِكْـــرٍ فِي خُشُـــوعِ صَـــلاها
وَخُمَـــارِ حُـــبٍّ فِي لِقَـــاءِ مُهَـــيْمِنٍ ... فِي رُؤْيَـــةٍ [3] وَوِصَـــالِهَا وَلُقَاهـــا
وَمَلِـيحِ صَـوْتٍ مِـنْ مَلائِكَـةِ السَّـمَا ... طَرِبَـــتْ لَهَـــا آذَانُنَـــا ثَمْلاهـــا
وَرَقِيـــقِ لَحْـــنٍ مِـــنْ بَلابِـــلِ جَنَّـــةٍ ... دَوَّتْ لَـــفِي أَعْمَاقِنَـــا أَصْـــدَاها
فَقَـــدِ اقْشَـــعَرَّتْ جِلْـــدُنَا مِـــنْ لَحْنِهَـــا ... أَصْـــدَتْ [4] لَهَـــا أَوْتَارُ مُوسِـــيقَاها
فَرُؤُوسُـــنَا ثَمْـــلَى لَمِـــنْ أَلْحَانِهَـــا ... وَقُلُوبُنَـــا خَفَّاقَـــةٌ لِجَوَاهـــا
يَا رَوْعَهَـــا هَـــزَّتْ جَمِيـــعَ كِيَانِنَـــا ... وَتَلاطَمَـــتْ كَالْمَـــوْجِ لُجٌّ [5] دِمَاهـــا
زَخَـــرَتْ [6] بِحَـــارُ وُجُـــودِنَا فِي رَهْبَـــةٍ ... عَصَـــفَتْ زَوَابِـــعُ رَعْـــدِهَا بِسَـــمَاها
دَبَّـــتْ بَرِيـــقُ الْـــبَرْقِ وَهْـــوَ مُكَهْـــرَبٌ [7] ... عَمَّـــتْ عَمِيـــقَ كِيَانِنَـــا بِسَـــنَاها

---

[1] استرق: صار رقيقاً.

[2] العنان: اللجام. وانقياد العنان هو عبارة عن التسليم.

[3] إشارة إلى كلام الإمام عليّ عليه السلام: (رأيته فعرفته فعبدته).

[4] أصدى الجبل: أجاب بالصّدى، أي أنّ أوتار موسيقى الجلد أجابت بالصّدى.

[5] لُجّ جمع لُجّة: معظم الماء.

[6] زخر البحر: طمى.

[7] كَهْرَب الشيء: جعل فيه القوّة الكهربائيّة.

سَـالَتْ عُـرَامُ [١] سُـيُولِهَا بِعُرُوقِنَـا نَبَضَـتْ شَرَايِـينٌ بِعِشْـقٍ تُقَاهـا
ضَـاعَتْ خِيَـالُ وُجُـودِنَا فِي لَـيْلَةٍ يَا رَوْعَ مِـنْ دَيْجُورِهَـا [٢] وَضِـيَاها
ضَـاعَ الـ (أَنا) وَتَحَطَّمَـتْ خَرِبَاتُـهُ كُسِـرَ الـ (أَنا) فِي جَذْبَـةٍ كَإِنَاهـا [٣]
وَمِثَـالُ جِسْـمٍ [٤] عَمَّ مَغْنَاطِيسُهَـا جِسْـمَ الْمَعَاشِ [٥] لَفِي بَرَى [٦] دُنْيَاها
قَامَـتْ قَـوَامُ الْعَقْـلِ مِـنْ طَاقَاتِهَـا نَبَعَـتْ لِمَنْهَـا حَوْلُهَـا وَقُوَاهـا [٧]
وَلِمَـنْ يُجَمِّـعُ شَمْـلَ جِسْـمِ مِثَـالِهِ أَثَرٌ مُحَـالٌ مِنْـكَ أَنْ تَنْسَـاها
أَثَرٌ عَظِـيمٌ فِي الطَّبِيعَـةِ حَـوْلَهُ بَـلْ نَافِـذٌ عِـبْرَ الزَّمَـانِ مَـدَاها [٨]
طَاقَاتُنَـا مِنْهَـا سَرَتْ فِي صَحْـوِنَا حَاجَاتُنَـا وَغَـرَائِزٌ وَلَبَاهـا [٩]

---

(١) عرام السّيل: كثرته وحدته.

(٢) الدّيجور: الظّلام.

(٣) (أنا) هو محوريّة الذّات والامبراطوريّة التي بنيناها عن أنفسنا، وضياعه في جذبة رحمانيّة هو تعبير عن الفناء كفناء القطرة في البحر، وهذا يعادل عبادة الثّقلين.

(٤) جسم المثال هو الجسم النّوراني أو الهالة التي حولك، وتلمع أكثر بعد غسل البدن بالماء.

(٥) جسم المعاش: البدن.

(٦) برى: تراب.

(٧) القوى العقليّة تجد انبعاثها من الجسم المثالي، وقوام العقل هو عبارة عن بنيانه الجميل الرّشيق المتّزن.

(٨) الرّياضات الرّوحيّة هي في الحقيقة عمليّة تجميع شمل المثال، فإذا تحقق الجمع كان له أثر كبير ليس على البيئة التي تحيط به مباشرة فحسب، بل ينفذ أثره عبر الزمان. وخلود أولئك الذين يمارسونها، وتأثيرهم على الأمم أكبر دليل على ذلك.

(٩) الباه: القوّة الجنسيّة.

وَالنَّـــوْمُ صِـــنْوُ مَنِيَّـــةٍ [1] وَفِرَاقُهَـــا مِـنْ جِسْـمِ صَاحِبِهَا سَـوَادَ دُجَاهـا [2]

آيَاتُ هَيْمَنَـــةِ الْمِثَـــالِ وَحَوْلِهَـــا وَنُفُوذِهَـــا فِي صَحْوِهَـــا وَكَرَاهـــا

بَـــلْ جِسْـــمُنَا دُونَ الْمِثَـــالِ لَمَيِّـــتٌ آثَارُهَـــا مِـــنْ دُونِهَـــا أَصْـــدَاها

بَـــلْ جِسْـــمُنَا لِلـــرُّوحِ مِثْـــلُ مَطِيَّـــةٍ وَطَـــراً عَـــلَى هَـــذا المَمَـــرِّ قَضَـــاها

فَـــانْظُرْ إِلَى فَـــرْقِ الْمَنَـــامِ وَيَقْظَـــةٍ سَـــتَرَى لِمَغْنَاطِيسِهَـــا وَمْضَـــاها [3]

سَـتَرَى بِعَيْنِـكَ كَيْـفَ حَـالُ جُسُـومِنَا بِفِـــرَاقِ جِسْـــمِ مِثَالِنَـــا وَنَوَاهـــا [4]

بَـلْ أَنْـتَ تَنْظُـرُ مِـنْ مِثَالِـكَ بِالْكَـرَى بَـــلْ أَنْـــتَ فِيهَـــا نَشْـــأَةٌ أُخْرَاهـــا

وَرُفَاتُ جِسْمِكَ قَدْ سَجَتْ[5] بِفِرَاشِهَا صَمَّاؤُهَـــا عَمْيَاؤُهَـــا بَكْمَاهـــا

بَـلْ أَنْـتَ رُوْحُـكَ لا رُفَاتُـكَ يَا فَـتَى بَـــلْ أَنْـــتَ بَاقٍ لا رُفَـــاتُ بِلاهـــا [6]

---

[1] إشارة إلى الحديث النبوي: << النّوم أخو (أو صنو) الموت>>.

[2] النوم هو مفارقة المثال جسم صاحبها بشكل مؤقت، وإلى هذا تشير الآية السّتون من سورة الأنعام الآية ٦٠: { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى }. فالنّوم هو الوفاة المؤقتة ويتمّ البعث بعد ذلك وهو اليقظة من النّوم.

[3] سترى طلوع مغناطيس المثال بعينك عندما يقوم أحد من نومه، وسترى غروبها بعينك عندما يموت أحد.

[4] النّوى: البعد.

[5] سجى: سكن.

[6] بلي الثّوب بلى: خلق ورث.

وَلِمَـنْ عَمِلْـتَ طِـوَالَ عُمْـرِكَ يَا فَـتَى لِرُفَـاتِ مَيْـتٍ أَمْ لِـرُوحٍ بَقَاهَـا

وفي مكان آخر (الأبيات من ١٨٤٢ إلى ١٨٥٦) :

وَقِيَامِهَـا فِي بِيئَـةٍ قُدْسِـيَّةٍ مِـنْ أَوْلِيَـاءِ اللهِ قُـدْسُ غِـذَاها [١]

وَتَشِـفُّ فِي يَـدَي الْـوَلِيِّ خِمَارُهَـا وَتَرِقُّ مِثْـلَ الْمَـاءِ صَـفْوُ جَلاهَـا

وَتَشُـبُّ جَـذْوَةُ [٢] نَارِهَـا بِغَـرَامِهِمْ وَيَزِيْـدُ دِفْءُ حَنِينِهَـا لِلِقَاهَـا

وَتَطِـيرُ فِي أُفُـقِ الْمِثَـالِ حَمَامَـةٌ [٣] رَمْـزُ السَّـلامِ عَـلَى بِسَـاطِ فَضَـاها

غَطَّـتْ سَمَـاءَ الْأَرْضِ لَـوْنُ بَيَاضِهَـا فَبَيَاضُهَـا بِيَـدٍ لَهُ بَيْضَـاها

وَنَسِـيمُ عِشْـقِ وَلِيِّـهِ [٤] وَغَرَامِـهِ فِي طَبْعِهَـا وَخُمَارِهَـا وَهَوَاهَـا

وَالـرَّاحُ فِي رَأْسِ الْحَمَامَـةِ وَالْهَـوَى حَمَـلَ الْـوَلِيُّ كُؤُوسَهَـا فَسَـقَاها

وَلِبَاسُهَـا بُرْدَا غَـرَامِ الْعَاشِقِيـ نَ وَنَهْجِهَـا فِي السِّـلْمِ فِي إِفْشَـاها [٥]

آيَاتُ تَرْبِيَـةِ الْـوَلِيِّ وَعِشْـقِهِ وَفَنَائِـهِ فِي اللهِ حَـقّ فَنَاهَـا

وَيَبِـينُ وَجْـهٌ اِسْتَشَـفَّ خِمَـارُهُ حَقّـاً جَـلالُ اللهِ قَـدْ سَجَّاهَـا [٦]

يَا رَوْعَ مِـنْ حُسْـنٍ تَخَمَّـرَ [٧] فِي حَيـاً وَجَـلالُ رَبِّ الْعَـرْشِ حَـقُّ غِطَاهَـا

فَجَمَالُهَـا أَسَرَتْ شَـغَافَ قُلُوبِنَـا فَرُؤُوسُـنَا مِـنْ حُسْـنِهَا ثَمْلاهَـا

---

[١] أي أن غذاءها المقدّس يتأتى من مصاحبة أولياء الله.

[٢] الجذوة: الجمرة الملتهبة.

[٣] تعبير عن المريد الحقّ.

[٤] أي وليّ الله وأنّ عشقه وحبّه انعكس في طبع الحمامة فهي دائمًا في خمار وهوى.

[٥] أي أن لباس الحمامة أو المريد عبارة عن بُرْدين وهما الغرام والسّلام.

[٦] قد مدّ الخمار على هذا الوجه.

[٧] تخمّرت المرأة بالخمار: لبسته.

وَخِمَارُهَـــا مُنْزَاحَـــةٌ لِمَحَـــارِمٍ جَنَّـــاتُ عَـــدْنٍ فِي حَـــرِيمِ وِطَاهـــا
ولِأَهْـــلِ لاهُـــوتِ السَّـــمَاءِ وَنَشْـــأَةٍ خَرَجَتْ مِنَ النَّاسُوتِ[1] عِبْرَ فَضَاها [2]
وَخِمَارُهَـــا بِيَـــدِ الْجَـــلالِ لِحِكْمَـــةٍ سِـــتْرُ الْحِجَـــابِ لَعَـــنْ رُؤَى غُرَبَاهـــا [3]

---

[1] النّاسوت: الطبيعة (الإنسانيّة).

[2] أي أنّ الحقيقة محجوبة عن أسراء الطّبع ولا تزيح الحقيقة خمارها إلّا لمن خرج عن سجن الطّبع واقلولَى رفيعًا في سماء الملكوت والجّبروت واللاهوت في حريّة عن أغلال نفسه ومحوريّة نفسه وطبعه.

[3] الغرباء هم أسراء الطّبع والطّبيعة والغريزة، بل أسراء الدّنيا بكلّ مفاهيمها السّفليّة، فَهُم غرباء عن الحقيقة المطلقة ولا مجال لهم للاطلاع عليها. { وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ } (القرآن الكريم، سورة فصلت، الآية ٥).

الكنز في بطن السكينة

نعم يا نفسُ !

وَلِمَـنْ عَمِلْـتَ طِـوَالَ عُمْـرِكَ يَا فَـتَى لِرُفَــاتِ مَيْــتٍ أَمْ لِــرُوحِ بَقَاهــا

نعم يا نفسُ !

إنّ الحقيقة محجوبة عن أسراء الطّبع، ولا تزيح الحقيقة خمارها إلّا لمن خرج عن سجن الطّبع ، واقلولَى رفيعًا في سماء الملكوت والجبروت واللاهوت، في حريّة عن أغلال نفسه ومحوريّة نفسه وطبعه.

الغرباء هم أسراء الطّبع والطّبيعة والغريزة، بل أسراء الدّنيا بكل مفاهيمها السّفلية، فَهُم غرباء عن الحقيقة المطلقة، ولا مجال لهم للاطلاع عليها. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ[1] .

[2] يقول العلم إنّ هذا الفخّ ـ ويعني به الثّقب الأسود ـ الذي لا يمكن تصديقه يصطاد الأنوار أيضًا، ولهذا لا نستطيع رؤية الثّقب الأسود. بيد أنّ النّور الذي يمرّ بالقرب من الثّقب الأسود يستطيع الإنفلات من الأسر، وينحني مجرد انحناءة، احترامًا لهذا النّجم الهائل الثّاقب الطّارق، الذي أقسم الله تعالى به في سورة الطارق.

ويقول العلم أيضًا إنّ هناك نظريّة بشأن الثّقوب السّوداء تقول بوجود خمسة أبعاد: ثلاثة أبعاد مكانيّة معروفة، وبُعد رابع هو الزّمان، وبُعد خامس هو شكل اشتباك وتورّط البُعد (المكاني ـ الزماني) مع حلقة سوداء غير كرويّة تدور على محورها. والتّحقيق العلمي الآخر الذي يستعمل

---

[1] (سورة فصلت ٥).

[2] من كتابي وحدة الإرادة في الوجود.

التّصنّعات الحاسوبيّة يُظهر بأنّ الثّقب الأسود، الذي يدور على محوره، يشوّه (النسيج المكاني الزماني) ويعوّجه ويثنيه ويلويه.

ويقول العلم إنّ هذه النّظريّة لا تبدو تخيّليّة وخارجة عن الموضوع، ومجلوبة من بعيد بمعايير الثّقب الأسود. وأبسط وصف ممكن هو أنّ الثّقب الأسود يحوي كمّيّة آلاف الشّموس، بيد أنّه يحتلّ حيّزًا لا يتعدّى حجم مدينة.

يا نفسُ ! فانظري إلى عظمة آلاء الله في كونه، وكيف أكرمنا بعبقريّة العقل بفضله وعونه. وسبحان الذي بيده ملكوت كلّ شيء وهو على كلّ شيء قدير. وسبحان الذي جعل معظم الكون من القوة الداكنة والمادة الداكنة والثّقوب السّوداء، وكلّها لا تُرى ولا تُبصر ولا تُشاهد، ولا يمكن أن تُرى وأن تُبصر وأن تُشاهد إلّا بالآثار التي تدلّ عليها.

يا نفسُ ! وسبحان الذي نفخ فينا من روحه الذي لا يُرى، وجعل فينا البرازخ التي لا تُرى بين الجسد وروحه، وجعل السّموات السّتّ من هذه البرازخ ولم يزيّنها بمصابيح، حتى لا تُرى !

يا نفسُ ! وسبحان الذي جعل الطّبع الذي فينا، والذي لا يُرى، والعقبة الكأداء فينا، لا يجتازها إلّا ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد من عباد الله آتاه رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علمًا !

علمًا بأنّ القوّة الداكنة في الكون يقابلها الرّوح في الإنسان، وأنّ المادة الداكنة في الكون تقابلها البرازخ (ما بين الجسد والرّوح المجرّد) في الإنسان، وأنّ الثقوب السّوداء في الكون يقابلها الطّبع في الإنسان.

يا نفسُ ! وكما يصطاد الثّقب الأسود الأنوار، يصطاد الطّبع الأولياء أيضًا. فلا يطمئنّ أحد إلى عاقبة أموره، وليلتصق بولاية الله، حتى آخر نفس من حياته، كما كان مقداد رضوان الله عليه ينصح به أصحابه.

يا نفسُ ! إنّ الأولياء ليسوا في مأمن من الشّيطان ومن الطّبع، لأنّ قليلًا من الميل إلى الجاه والرئاسة ربّما يخرجهم عن الصّراط المستقيم، وعن أهليتهم لحياة الآخرة في قوله تعالى[1] : { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }.

ومن شيمة الطّبع الفساد وهو الإفراط والتّفريط والخروج عن خطّ الاعتدال والذي هو خطّ الفضيلة.

وحبّ الجاه والرئاسة في الأولياء ربّما يأخذ شكلًا آخر كحبّ المشيخة وغيرها. والإفراط والتّفريط في الأولياء ربّما يأخذ شكلًا آخر كالتّشديد في المستحبّات، واعتبارها كالفرائض.

يا نفسُ ! إنّ النبي صلوات الله عليه وآله أوصى بالنّوافل ولكن فرادى لا جماعات، كلّ حسب عشقه لله، وكلّ حسب طريقته للوصول إلى هدفه ـ وأكرّر للوصول إلى هدفه ـ وهو القرب والزّلفى في جوار ربّه فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ[2] . في حين أنّ النّوافل عند الكثيرين مجرّد تقليد، يجنون منها كلّ شيء غير الوصول إلى الله جلّ وعلا والقرب والزّلفى في جواره لأنّهم غير هدّافين.

يقول الله عز وجل[3] : { وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ }. وهذا بالضبط ما تعنيه النّوافل الخاصّة لكلّ فرد حسب مقامه، أو ما نسمّيه في تربية العرفان بالأوراد الخاصّة لكلّ سالك حسب قابليّته. فكما أنّ لكل سالك مقامًا معلومًا ومكانة خاصّة عند الله، كذلك يجب عليه أن يكون منفردًا في معرفته لله، وفي إدراكه لأسرار السّماء والوجود.

---

[1] (سورة القصص ٨٣).

[2] (سورة القمر ٥٥).

[3] (سورة الصافات ١٦٤).

يا نفسُ ! وفي كأس كلّ سالك خمرة الذّكرى الأزليّة الأبديّة التي يحتسيها وحده، عندما يكون صامتًا مصغيًا إلى ذاته العميقة في وحدته. لا يستطيع أحد أن يعلن له شيئًا غير ما هو مستقرّ في فجر معرفته. إنّه في السّكينة وحدها يستطيع السّالك أن يجد الكنز في أعماق أعماقه.

مراقبة الأنفاس

يا نفسُ ! وإذا كانت الآخرة يوم حصادي، ففي أيّة حقول يا ترى بذرت بذاري ! أتراني جاهدت في نفسي التي لبست جلابيب سواد الحنادس، وادلهمّ فيها سجف الليل المظلم ! أتراني جاهدت حقّ جهادي، حتى استتبّت في شغاف قلبي السّكينة والوئام والسّلام، محلّ الطغيان والغرور والظّلام، وتلمّست في سكينة القلب أنوار الهدى وأضواء الحكمة وأسرار الليالي والأيام، واستطعت أن أرفع فيها مصباحي، واضعًا إياه على منارتي ! حقًّا إنّ المصباح ليس منّي، والمنارة ليست منّي، والنّور الذي يتصاعد من المصباح ليس منّي. ذلك الفضل من الله يؤتيه من يشاء، والله واسع كريم.

يا نفسُ ! إنّ ذاتي الإلهيّة كالأثير لا ترفع إلّا ذوي الأجنحة. والإنسان خلق للعمل كما خلق الطّير لكي يطير، والأسماك لكي تسبح، كما قال نبيّ الله أيوب عليه السلام.

يا نفسُ ! من أحبّ الحياة الأبديّة بالعمل النّافع تفتح له الحياة أعماقها، وتدنيه من أبعد أسرارها. إنّ الحياة تكون ظلمة حالكة مدلهمّة، إذا لم ترافقها الحركة. فلتكن حركة أجنحتك بالنّوافل.

يا نفسُ ! وأحسن النّوافل الانشغال بعيوبك عن عيوب النّاس، ولزوم بيتك، والبكاء على خطيئتك. كما قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: << يَا أَيُّهَا النَّاسُ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ، وَ طُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ وَ أَكَلَ قُوتَهُ وَ اشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ وَ بَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ وَ النَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَة >>.

وأقصر الطريق إلى الله الانقطاع إلى الله، ففي الحديث القدسي:<< من انقطع إلينا رفعناه مقامًا عليًّا >>.

وأحسن الصّلاة مراقبة الأنفاس على يقين، سواء في اليقظة أو في النّوم العميق. لقول عليّ عليه السلام: << نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ خَيْرٌ مِنْ صَلاَةٍ فِي شَكٍّ >>.

وأحسن العقل عقل رعاية لا عقل رواية. وما أكثر الرّواة وما أقل الرّعاة. لقول عليّ عليه السلام << اعْقِلُوا الْخَبَرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لاَ عَقْلَ رِوَايَةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ، وَرُعَاتَهُ قَلِيلٌ >>.

وأحسن الإيمان الشّكر، لا في القول فحسب، ولا في حالتك فحسب، ولا في مقامك فحسب، بل أن يكون الشّكر عنصرًا أساسيًّا من مزاجك الباطني. فالله يريد منّا الشّكر الشّكر الشّكر ، وأن ننصره بما بلغت قوّتنا. لقول عليّ عليه السلام: << إِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ قَدِ اصْطَنَعَ عِنْدَنَا وَعِنْدَكُمْ أَنْ نَشْكُرَهُ بِجُهْدِنَا، وَأَنْ نَنْصُرَهُ بِمَا بَلَغَتْ قُوَّتُنَا، وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللّٰهِ >> [1] .

وأحسن زاد الآخرة الإخلاص وصدق النيّة والسريرة الصالحة. لقول رسول الله محمّد صلوات الله عليه وآله<<أَخْلِصْ دِينَكَ، يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ>>، ولقول أيضًا صلوات الله عليه وآله <<أَخْلِصُوا أَعْمَالَكُمْ لِلَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الأَعْمَالِ إِلا مَا خَلَصَ>>، ولقول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: <<إِنَّ اَللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ اَلنِّيَّةِ وَ اَلسَّرِيرَةِ اَلصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ اَلْجَنَّةَ>>.

[1] ومن كتاب له (عليه السلام) إلى عماله على الخراج.

تجاوز العقبة الكؤود

يا نفسُ ! وإذا آتى الله العبد رحمة من عنده وعلّمه من لدنه علمًا ، فإنّ العلم اللدنّي إذا اقترن برحمة الله عزّ وجلّ بصّره بآفات الجاه والرئاسة والإفراط والتّفريط وكشفها على حقيقتها، كي يتحاشاها العبد بعون الله وفضله.

وبصّره بالآفة الكبرى في طبيعة الإنسان وهي العقبة الكؤود في طريق السّالك الواصل، ألا هو التورّط في الطّبع، والبقاء في فلك الطّبع، وفي فلك الطّاحونة والرّحى، وجهله بأنّه يدور في هذا الفلك وفي هذه الطاحونة كما يدور الرّحى، لا ينفذ من هذا الفلك ومن أقطار السّموات والأرض. يقول الله عزّ وجلّ[1] : { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ }.

أو كما قال الشّاعر: ـ

وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ جَهْلِهَـــا بِمَـــدارِهَا أَبْقَـــتْ عَـــلَى دَوَرَانِهَـــا بَرَحَاهـــا

مَنَعَـــتْ نُفُـــوذَكُمُ لِـــنْ أَقْطَارِهَـــا وَوُلُـوجَكُمْ فِي القُـدْسِ فِي مَأْوَاهـا [2]

يا نفسُ ! هناك أشياء أخرى يجب على العبد المستفيض في إخلاصه، المتنعّم في جوار ربّه وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، أن يتحاشاها. وقد ذكرناها بالتفصيل في كتابنا "السّموات السّبع" في فصلي "التّجلي الذّاتي" و "قدسيّة الزلفى"[3] . ونقتبس بعض أبياتها التي لها علاقة بهذه الأشياء التي يجب تحاشيها كالتالي: ـ

وَنُحِـــبُّ حُـــبَّكُمُ دُخُـــولَ حَرِيمِنَـــا فَلَـــنَحْنُ نَفْـــتِنُ عَبْـــدَنَا وَهُـــدَاها

---

[1] (سورة الرحمن ٣٣).

[2] كتاب السّموات السّبع للمؤلف صفحات ١٤١-١٤٢ في الطّبعتين الأولى والثانية (الثانية مرصّعة بمقدّمة الأستاذ محسن جمعة حفظه الله تعالى، وجداول الآيات والأحاديث والأعلام، وأيضًا الأماكن والبلدان التي رتّبها مشكورًا أخونا حسن عبد الحسين شكر الله سعيهما).

[3] صفحات ١٣٨ إلى ١٤٢ في الطّبعتين الأولى والثانية.

وَلَـــنَحْنُ نَمْـــتَحِنُ الْقُلُـــوبَ بِفِتْنَـــةٍ ... كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ غُثَاهـــا [1]

كَيْ لا تَجُـــــوزَ حَقَائِـــــدٌ بَدْرِيَّـــــةٌ ... مِـــنْ سَـــيْفِ آلِ الْمُصْـــطَفَى بِوَغَاهـــا

مُتَسَـــــرْبِلِينَ بِظَـــــاهِرٍ أَثْوَابَنَـــــا ... حُبّـــاً لِإِمْـــرَةِ خَلْقِنَـــا بِرِيَاهـــا

كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ وَفِـــيهِمُ ... مِثْقَـــالُ ذَرَّةِ حُـــبِّهِمْ دُنْيَاهـــا

كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ وَفِـــيهِمُ ... قِطْمِـــيرُ [2] كِـــبْرٍ أَوْ مَحَبَّـــةِ جَاهَـــا

كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ مُهَلَّـــلٌ ... وَمُكَـــــبِّرٌ وَإِلهُـــــهُ لَهَوَاهـــــا [3]

كَيْ لا يَجُـــــوزَ مُهَلَّـــــلٌ وَمُكَـــــبِّرٌ ... وَالشِّـــــرْكُ فِي أَعْمَـــــاقِهِمْ بِخَفَاهـــــا

كَالـــنَّمْلَةِ السَّـــوْدَاءِ فِي غَسَـــقِ الـــدُّجَى ... دَبَّـــتْ عَـــلَى سَـــوْدَائِهَا بِصَـــفَاها [4]

كَيْ لا يَجُـــوزَ أُولـــئِكُمْ رَامُـــوا السِّـــوَى ... وَهُمُ هُمُ فِي حُلَّـــــــتَيْ فُقَرَاهـــــــا [5]

كَيْ لا يَجُـــوزَ شَرِيـــدُهُمْ عَـــنْ قَـــوْمِهِمْ ... أَخَـــذُوا مَلَابِـــسَ دِيـــنِهِمْ مَأْوَاهـــا [6]

كَيْ لا يَجُـــوزَ جَهُـــولُهُمْ فِي دِيـــنِهِمْ ... أَخَـــذُوا قُشُـــورَ الـــدِّينِ مِـــنْ بُلَهَاهـــا

كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ مُنَـــافِقٌ ... نَكِـــرُوا الْمَعَـــادَ وَطَوّلُـــوا بِصَـــلَاها [7]

كَفَـــرُوا لَـــفِي أَعْمَـــاقِهِمْ بِنُبُـــوَّةٍ ... لِمُحَمَّـــــدٍ خَـــــيْرِ الأَنَامِ لِطَـــــهَ

وَتَظَـــاهَرُوا بِاللِّحْيَتَـــيْنِ [8] وَبُقْعَـــةٍ ... كَـــبُرَتْ عَـــلَى جَبَهَـــاتِهِمْ سَـــوْدَاها

---

[1] الغثاء: الهالك والبالي من ورق الشّجر المخالط زبد السّيل.

[2] القطمير: القشرة الرقيقة بين النّواة والتّمرة، يقال: (ما أصبت منه قطميرًا) أي شيئًا.

[3] إشارة إلى الآية الكريمة: { أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ } (سورة الفرقان ، الآية ٤٣).

[4] إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: <<الشّرك في أمتي أخفى من دبيب النّمل على الصّفا في الليلة الظّلماء>>.

[5] أولئك الذين أرادوا غيرالله وهم في جبّة الأولياء.

[6] التجأوا إلى ملابس الدِّين بنيّة التميّز والجاه الدّنيوي وبسبب انحطاط منزلتهم الاجتماعيّة.

[7] جهلوا المعاد وطولوا بصلاتهم.

[8] اللّحية: شعر الخدّين والذّقن.

كَفَـــرُوا بِعُمْـــقِ فُـــؤَادِهِمْ بِإِلهِـــهِمْ لَعِـــقٌ رِيَاءُ الـــدِّينِ فَـــوْقَ شِـــفَاها [1]

وَتَظَـــاهَرَتْ بِالتَّمْتَمَـــاتِ [2] شِـــفَاهُهُمْ يَا لَيْـــتَهُمْ سَـــبَرُوا [3] بُطُـــونَ هُـــدَاها

نَبَـــذُوا مَعَـــالِمَ بَاطِـــنٍ وَتَمَسَّـــكُوا بِمَظَـــاهِرٍ مِـــنْ دِينِهَـــا وَلِحَاهـــا [4]

جَهِلُـــوا الْحَقَـــائِقَ وَالدِّيَانَـــةَ كُلَّهَـــا وَتَمَسَّـــكُوا بِظَـــوَاهِرٍ وَغُثَاهـــا

قَـــالُوا وَجَـــدْنَا هكَـــذَا آبَاءنَا كَسَـــبُوا لِمَـــنْ آبَائِهِـــمْ عَـــدْوَاها [5]

كَيْ لا يَجُـــوزَ عَـــلَى الصِّـــرَاطِ عُتُلّهَـــا [6] فِي خُلْقِـــهِ وَلَـــوِ ادَّعَى تَقْوَاهـــا

كَيْ لا يَجُـــوزَ وَفِـــيهِمُ عَصَـــبِيَّةٌ مِـــنْ لَـــوْنِ مِـــنْ قَوْمِيِّـــةٍ وَدِمَاهـــا

وَحَمِيَّـــةٌ [7] مِـــنْ جَاهِلِيَّـــةِ عَهْـــدِهَا [8] قَبَلِيَّـــةٌ لُغَوِيَّـــةٌ بِحِجَاهـــا [9]

كَيْ لا يَجُـــوزَ وَنَفْسُهُـــمْ مَحْشُـــوَّةٌ بَعُـــدَ الْمَطَـــافُ لَعَـــنْ صَـــفَاءِ (بَـــلَى) هـــا [10]

فَعَـــلَى الصِّـــرَاطِ تَسَـــاقَطَ الـــرَّهْطُ [11] الَّـــتِي عَلِقَـــتْ [12] بِغَـــيْرِ اللهِ فِي نَجْوَاهـــا

وَلِـــرَوْمِهِمْ فِي الرُّشْـــدِ غَـــيْرَ إِلهِـــهِمْ وَلِغَفْـــلَةٍ عَـــنْ ذِكْرِهَـــا وَرِضَـــاها

---

[1] إشارة إلى كلام الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء: <<والدِّين لعقٌ على ألسنتهم>>.

[2] تمتم في الكلام: عجّل فيه ولم يفهمه.

[3] سبرها: عرف قدر سعتها.

[4] لحى: جمع لحية.

[5] عدوى العقيدة: فساد العقيدة.

[6] العتل: الجافي الغليظ.

[7] الحميّة: الأنفة والنّخوة.

[8] إشارة إلى الآية: { إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ }(سورة الفتح الآية ٢٦).

[9] يعني عقولهم قبليّة ومتعصّبة للغة.

[10] أي أنّ نفسه محشوة بالاكتسابيّات التي أبعدته عن صفاء الفطرة وعن صفاء الميثاق الذي ذكر في الآية: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } (سورة الأَعراف الآية ١٧٢)

[11] الرّهط: القوم.

[12] علق به: تعلق.

وَلِطُـــولِ آمَـــالِ الْحَيَـــاةِ بِزُخْـــرُفٍ ... وَبِزِينَـــةٍ وَمَتَـــاعِ عَـــيْشٍ ثَرَاهـــا

وَغُـــرُورِهِمْ بِمَتَـــاعِ دُنْيـــاً زَائِـــلٍ ... اِسْـــتَنْكَفُوا عَـــنْ سُجْـــدَتَيْ بُسَـــطَاها

وَلِـــذَرَّةِ الطُّغْيَـــانِ فِي أَرْوَاحِهِـــمْ ... حَسَـــداً وَحِقْـــداً نِقْمَـــةً بَغْضَـــاها

وَلِحِـــرْصِهِمْ فِي جَمْـــعِ مَـــالٍ زَايَـــدَتْ [1] ... حَاجَـــاتِهِمْ وَعَدِيمَـــةٌ جَـــدْوَاها

وَتَنَافُسَـــاتٍ فِي رَحَى دُنْيَائِهَـــا ... وَلَحُـــبُّ دُنْيـــاً رَأْسُ كُلِّ خَطَاهـــا [2]

وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ مَـــيْلِهِمْ لِفُـــرُوجِهِمْ ... وَإِثَارَةٍ فِي مُشْـــتَهَى رُؤْيَاهـــا

وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ شَهْـــوَةٍ فِي غَيْبَـــةٍ ... وَفُضُـــولِ لَغْـــوِ كَلَامِهَـــا وَهُرَاهـــا

وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ مَيْـــلِ سَمْـــعِ هُرَائِهَـــا ... دَلَّـــتْ عَـــلَى فَضَـــلَاتِ مَيْـــلِ هَوَاهـــا

وَتَفَـــاخُرٍ بِالِاكْتِسَـــابِ لِمَالِهَـــا ... وَلِعِلْمِهَـــا وَمَقَامِهَـــا وَلِجَاهـــا

وَتَفَـــاخُرٍ فِي حُـــبِّ أَوْلَادٍ وفِي ... أَشْخَـــاصِهِمْ كِـــبْراً وَفِي خُيَلَاهـــا [3]

وَلِـــذَرَّةٍ مِـــنْ جَهْلِهَـــا بِمَـــدارِهَا ... أَبْقَـــتْ عَـــلَى دَوَرَانِهَـــا بَرَحَاهـــا [4]

مَنَعَـــتْ نُفُـــوذَكُمُ لَمِـــنْ أَقْطَارِهَـــا ... وَوُلُـــوجَكُمْ فِي القُـــدْسِ فِي مَأْوَاهـــا

وَدُخُـــولَكُمْ عَتَبَاتِنَـــا وَحَرِيمَنَـــا ... وَوُرُودَكُمْ فِي القُـــدْسِ فِي زُلْفَاهـــا

حَـــتَّى تُحَلُّـــوا مِـــنْ أَسَـــاوِرِ فِضَّـــةٍ [5] ... وَتُلَبَّسُـــوا مِـــنْ كِـــبْرِيَاءِ رِدَاهـــا

---

(١) زايده: غالبه في الزّيادة فغلبه.

(٢) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: <<حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة>>.

(٣) إشارة إلى الآية: { اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ } (سورة الحديد، الآية ٢٠).

(٤) أي أنّها جاهلة بمدارها حول محوريّة الدنيا، وتسعى بكلّ جهد للإبقاء على هذا الدوران كدوران الرّحى. وهذا الجهل وذاك المسعى يمنعانها من رؤية الآخرة والعاقبة ومن ثمّ نفوذها من أقطار الدنيا إلى عوالم القدسيّة والزلفى.

(٥) إشارة إلى مقام الأولياء ومقام جمع الجمع في الآية الكريمة: { وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}(سورة الإنسان، الآية ٢١).

وَتُلَبَّسُـــــوا أَخْلاقَنَـــــا وَصِـــــفَاتِنَا وَتُعَلَّمُـــــوا بِكَرَامَـــــةٍ أَسْمَاهـــــا

هل يوجد عالم العدم

يا نفسُ ! نحن لا نعلم عن عالم العدم شيئًا، حينما كان التّفّاح جميع أسبابه لا بالفعل ولا بالقوّة. ولو أني أعتقد اعتقادًا جازمًا أن لا وجود للعدم، بل أنّ التّفّاح يمرّ في دورات، بأشكال أخرى، وفي نشأة أخرى، لأنّ لا شيء يفنى في الوجود، بل كلّ شيء إمّا في صورة مادة، أو في صورة طاقة، تتحوّل دائمًا من هذه الصّورة الى تلك وبالعكس.

وهذا ما قالته الحكماء من زمان الإغريق ، وقاله الإمام جعفر الصّادق عليه السلام، كما ذكرت في كتابي هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام، وأذكره في فصل لاحق.

وأيضا أيّدهم العلم الحديث، كما ذكرت في كتابي أسرار النفس البشرية الجزء الثاني، في فصول (قوانين حفظ المادة والطّاقة) و (قانون حفظ الكتلة) و (قانون حفظ الطّاقة) - حيث أشرح قانون آينشتين الشهير في تكافؤ المادة والطّاقة - كما يأتي نبذة قصيرة من هذه الفصول في فصل لاحق.

يا نفسُ ! إنّنا نلمس البذر ونراه ونحسّه، بمعنى أنّنا نرى رتبة القوّة بشكل مادة، بيد أنّنا نرى ظاهره فقط، أمّا ما في باطنه فيمكننا أن نراه تحت المجهر، ولكن ماهيّته تبقى غير محسوسة وغير ملموسة.

فهي تحمل في طيّاتها جميع القابليّات، وعوامل الرّشد والتّكثير والشّكل، وتناسق الأجهزة الحياتيّة للشّجرة. فهذه النّواة الصّغيرة وعالمها الحياتي هي هويّة الشّجرة الثّابتة الوجوديّة.

فمن نظر إلى الشّجرة وأغصانها، وأوراقها وأثمارها، وطول سيقانها، وضخامة جذعها، فليبحث في هذه النّواة (إن استطاع ذلك)، وفي كلّ جوانب عالمها الحياتي، القدرة الحاكمة في

خريطة هذه الشّجرة بديعة المنظر، واختصاصاتها المنضبطة. وهذا الأمر البتّة ليس من المسائل المحسوسة والملموسة.

يا نفسُ ! لكن هذا البذر يتعرّض لتغييرات كثيرة، وهو في باطن الأرض، حتى يصير كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ[1] ، وحتى يتحوّل شجرة كبيرة.

يا نفسُ ! نحن نلمس البذر بأيدينا، حينما تصبح الأسباب في رتبة القوّة، رغم أنّ ماهيّة عالمه الحياتي مجهولة لدينا، وتبقى كذلك ما دام جنس التّفّاح باقيًا، حيث بإمكاننا أن ننمّيها إلى أن تنتقل إلى رتبة الفعل والكمال، حينئذ نأكل التّفّاحة هنيئًا مريئًا.

يا نفسُ ! ولكن ماذا بعد أن افتقد التّفّاح، وأكلنا التّفّاح، وامتزج التّفّاح بجسدنا، وغاب عنّا أثره ؟ فالتّفّاح الآن في نشأةٍ أخرى، يجب أن نلمسها في دورة أخرى، ألا هو دورة حياة الإنسان، حيث يعطي للإنسان قوّة إدامة الحياة، في صحّة وعافية، على وجه هذه الأرض.

يا نفسُ ! إنما هو مثال ضربته، حيث أريد أن أبيّن أن كلّ شيء في هذا الوجود هكذا. حيث أريد أن أقرّب إلى الأذهان، كيف تتحوّل الأسباب بالفعل، بعد أن كانت في الابتداء: لا بالفعل ولا بالقوة، ثمّ انتقل إلى مرتبة كان فيها بالقوة، ثمّ ذهب من رتبة القوّة إلى رتبة الفعل والكمال، فصار حينئذٍ فاعلًا كاملًا، مصوّرًا متصوّرًا، ممثّلًا متمثّلًا.

يا نفسُ ! إنما أنا أعرض تأمّلاتي لهذه المعاني العظيمة البديعة، والتي هي دليل على لطيف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

يأتي حين من الدّهر لا يكون الشيء فيه شيئًا مذكورًا، يعني لا يوجد لا بالفعل ولا بالقوّة.

---

[1] (سورة الفتح ٢٩).

أين هو ؟ لا بدّ أن يكون في الجنس، في إحدى دوراته - في هذا المثال يكون في جنس التّفّاح - إذا كان هذا الجنس غير منقرض.

أين هو ؟ لا بدّ أن يكون في دورة من دورات الجنس - في هذا المثال في دورة من دورات جنس التّفّاح.

يا نفسُ ! لكنّنا لا نراه ولا نلمسه، بمعنى أنّ شخصيّة معيّنة قد فُقدت، فهي لا بالفعل ولا بالقوّة. فلنتلمّس الحقيقة في الدّورات. في مثال التّفّاح الذي أُكل، وهو يعطي الآن قوّة إدامة الحياة لإنسان، فلنتتبّع آثاره في دورة الإنسان، فمن حياة الإنسان يخرج إنسان آخر، وللتّفّاح دور في ذلك، وهكذا دواليك، فالدّورات متداخلة.

يا نفسُ ! كذلك كلّ شيء في الوجود، الأجناس بالمليارات، ودورات حياة لأجناس مختلفة بالمليارات، وهي كلّها متداخلة في بعضها البعض.

يا نفسُ ! فلنتتبّع حقيقة شخصيّة تفاح ما في جنس التّفّاح، وهو يمرّ بدورات مختلفة، إلى أن تظهر هذه الشّخصيّة بالذّات في وقت معيّن. ثمّ إذا افتُقدت الشّخصيّة بعينها، فلنتتبّعها بعد فنائها في دورات أخرى لأجناس أخرى.

يا نفسُ ! هناك دورات تبرز فيها أجناس، وتنقرض أجناس، وهي بالمليارات. وفي جنس واحد، هناك دورات تقدّر بالمليارات، تبرز فيها شخصيّات، وتقدّر بالمليارات المليارات، ثمّ تموت.

يا نفسُ ! ترى إلى أين تذهب ! نتتبّعها في دورات أجناس أخرى، إلى ما لا نهاية. هكذا هي دوحة الوجود ! مليارات من الأجناس تبرز ثمّ تنقرض، ومليارات من دورات الحياة تبرز ثمّ تنتهي، ومليارات من الشّخصيّات تبرز ثمّ تموت.

إرادة اللّه جوهر الوجود

يا نفسُ ! يقول الإمام جعفر الصّادق عليه السلام في سياق محاورته مع تلميذه جابر بن حيّان: أقول لمستمعي الملحد إنّ الإرادة جوهر الوجود، وإنّ الوجود يتجلّى في العالم بشكل مشهود ومحسوس وملموس. ومتى شاءت الإرادة التجلّي بشكل مشهود ومحسوس وملموس ظهرت بذلك الشّكل.

والإرادة والتّجلّيات التي نبعت عنها بشكل عالم مشهود ومحسوس وملموس قريبة جدًّا من بعضها البعض، بحيث لا يمكن الفصل بينهما.

ولا مانع من تسمية الإرادة بالرّوح، لأنّ الإرادة والتّجلّيات التي تنبع عنها بشكل عالم مشهود ومحسوس وملموس، لا تختلف شيئًا عن الرّوح والجسم. ولكنّ الملحد يتقبّل الإرادة والتّجليات التي نتجت عنها أكثر من تقبّله للرّوح والجسم.

هذه الإرادة والتّجلّيات التي نبعت عنها بشكل مشهود ومحسوس وملموس توجد فينا أيضًا، وهي إرادتنا بالتشبّث بالحياة وحفظ تجلّياتها المشهودة المحسوسة الملموسة يعني الجسم. ولقد ذكرت بأنّه لا يوجد في الإنسان ميل وإرادة أقوى من حبّ الحياة.

أقول لمستمعي الملحد إنّ (الإرادة) شاءت خلق تجلّياتها المشهودة المحسوسة الملموسة، فكان هذا العالم الذي نراه ونحن جزء منه.

وهذا هو معنى <كن فيكون> في الحكمة. فالإرادة شاءت أن يكون فكان، وظهر العالم المشهود المحسوس الملموس. وليس بين هذا العالم المشهود المحسوس الملموس وبين الإرادة فرق، اللّهمّ إلّا أنّ الإنسان لا يرى الإرادة ولا يلمسها، ولكنّه يرى العالم المشهود المحسوس الملموس ويحسّه ويلمسه.

والموت هو تجلّي الإرادة المحسوس. وإذا أردت إقناع الملحد، فقل له إنّ هذا العالم المحسوس الذي خلقته الإرادة هو الحياة ذاتها. وأنت تعلم أنّ كلّ شيء في هذا العالم ينبض بالحياة، وحتى الصّخور الصمّاء تنبض بالحياة، ناهيك عن النّبات والحيوان والإنسان ومياه الأنهار والبحار!!!

وعندما قالت الإرادة <كن> <فيكون>، أيْ أن الحياة برزت إلى الوجود.

والموت في هذه الحياة لا يعني العدم، وإنّما هو مجرّد تغيير الشّكل في إحدى نواحي الحياة. الولادة والموت كلاهما حياة، ولا يجوز تسمية الموت نحسًا والولادة يمنًا، لأنّ كليهما وجهان أو مظهران أو تجلّيان من الحياة، مثل الماء والثّلج، هما وجهان أو مظهران أو تجلّيان من الماء، وليس هناك فرق في ماهيّة الماء والثّلج.

كذلك هو ولادتنا وموتنا فهما وجهان من الحياة. والولادة لا تنفي الموت كما أنّ الموت لا ينفي الولادة. وإذا فرضنا الولادة والموت قطبين لعصا، فيمكن فرض العصا بأنّه الحياة وأنّ قطبيه الولادة والموت.

الموحِّد لا يخاف الموت لأنّه يعلم بأنّه يبقى بعد الموت. والملحد إذا عَلِمَ بأنّ الموت وجه آخر من الحياة، فإنّه لن يخاف الموت. وأُفْهِم الملحدَ الذي لا يؤمن بالله بأنّه يبقى بعد الموت.

قل له يا جابر: إنْ عقلنا وحواسنا ناقصة لدرك الأدوات التي بها خلق العالم (أو الحياة). ولكنّنا نرى بأعيننا المواد التي خُلق منها العالم. ولدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة) يجب أن يكون عقلنا أقوى مما هو الآن، وحواسنا غير الحواس التي عندنا الآن.

إنّك تعلم أنّ أفرادًا من بيننا لا يشمّون رائحة - طيّبة كانت أم رديئة - لأنّهم تنقصهم الحاسّة التي بها تُشمّ الرّوائح. وإنّك تعلم أنّ أفرادًا من بيننا لا يرون شيئًا، لأنّهم تنقصهم الحاسّة التي بها تُرى الأشياء والأشخاص.

ولدرك الأدوات التي بها خُلق العالم (أو الحياة) فإنّنا مثل أولئك الذين تنقصهم بعض الحواس، فَهُم لا يشمّون رائحة ولا يرون شيئًا. ولدرك ذلك نحتاج إلى عقل أقوى وحواس أكثر من حواس اليوم.

إنّ العلم يمرّ بفترات ركود ونهضة كما أثبت لنا التّاريخ ذلك. ويمكن أن تأتي فترات حركة ونهضة علميّة في المستقبل، يدرك فيها البشر الأدوات التي خُلق بها العالم (أو الحياة).

سابقوا إلى معرفة النفس

يا نفسُ ! إلى أين نحن سائرون ؟ لا يعلم ذلك إلّا الله. لكن الله قال على لسان أنبيائه: إنّ كلّ هذه المليارات المليارات مليارات، إنّما هي قوى محسوسة ملموسة مشهودة، بما فيها الجنس البشري، خلقها الله العليّ العظيم، كي يخرج في آخر المطاف الإنسان، الذي هو خليفة الله في أرضه، لكي يعرف هذا الخالق العظيم. إذ قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: << كنتُ كنزًا مخفيًّا فأردتُ أنْ أُعرف فخلقتُ الخلقَ لكي أُعرف >>.

يا نفسُ ! إنّه جلّت قدرته لم يكتف بالقوى المحسوسة الملموسة المشهودة، بل خلق أيضًا المخلوقات النّورانيّة وهي الملائكة ، وأمرها أن تسجد لهذا الإنسان. بمعنى أنّ كلّ هذه الدّوحة العظيمة من الخلق مسخّرة لهذا الإنسان، الذي هو خليفة الله في أرضه، والذي وصل إلى معرفة الله جلّ وعلا.

يا نفسُ ! يقول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: <<من عرف نفسه فقد عرف ربّه>>. وأتمنّى أن يساعد كتابي هذا (أسرار النّفس البشريّة) - بمختلف أجزائه - على معرفة النّفس، ومن ثمّ على معرفة الله سبحانه وتعالى. فسابقوا وسارعوا إلى الخيرات يا عباد الله يرحمكم الله !!! فقد قال حبيبي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: << مَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ، وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ لَهَى عَنِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ تَرَقَّبَ الْمَوْتَ هَانَتْ عَلَيْهِ اللَّذَّاتُ، وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ >>.

يا نفسُ ! إنّ عمليّة الخلق الهائلة هذه، كما وصفناها بالمليارات المليارات، إنّما تنبع من إرادة ذلك الكنز الخفيّ المخفيّ، الذي لا تراه العيون، ولن تراه.

يا نفسُ ! لكنّ العيون ترى جوهر الإرادة هذه – في وجدانها وقلوبها - في تجلّياته أثناء عمليّات الخلق الهائلة، وتلمسها وتحسّها، أثناء هذه العمليّات الرّائعة، وتتأمّل المعاني العظيمة في تجلّياتها. فذلك يا نفسُ ! دليل على لطيف حكمة مبدع العالم جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه.

يا نفسُ ! ولولا الأنبياء والرّسل والأوصياء والأئمّة الطّاهرون والأولياء وعباد الله الصّالحون، لتاهت عقولنا إلى حيث لا ندري ! ولا نعلم بأيّ وادٍ نكون ! وقد وضع الإمام جعفر الصّادق عليه السلام النّقاط على الحروف، وبيّن هذه الحقيقة لتلميذه جابر بن حيّان بالتّفاصيل. وقد ذكرت ذلك في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام).

قوانين حفظ المادة والطاقة

يا نفسُ ! وكما ذكرنا في فصل سابق يسمّى (الدِّين شيء جميل)، لقد قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام:

إنّ الأصل في الحكمة، في زمن اليونانيين، وحتى يومنا هذا هو كالتالي:

لا يبيد شيء في العالم

إلّا أنّ شكل الأشياء يتغيّر

كذلك الإنسان لا يفنى، ولكنّه بعد الموت يتعرّض لتغيّرات الشّكل، وأيضًا يتغيّر فكر الإنسان، كما يتغيّر الإنسان نفسه، وبدون شكّ يبقى الإنسان وفكره، ولكن بشكل آخر. والذي يبقى بعد الموت هو الرّوح، وهو صفة الإنسان المعنويّة.

يا نفسُ ! وقد ظهرت في العلم الحديث نظريّات (حفظ الطّاقة)، ثمّ (حفظ الكتلة أو المادة)، ثمّ (تكافؤ الطّاقة والمادة)، من عام ١٦٣٨، على يد جاليليو Galileo، إلى عام ١٩٠٥، حين أعلن آينشتين Einstein عن نظرية (تكافؤ الطّاقة والمادة).

وفي الفقرات التالية نعطي نبذة عن ذلك:

فلقد اكتشف العالم الروسي ميخائيل لومونوسوف Mikhail Lomonosov في عام ١٧٥٦ ميلادي قانون حفظ الكتلة، بعد التجارب الكثيرة التي أجراها، وتوصّل إلى أنّ نظريّة الفلوجستون phlogiston theory – التي كانت سائدة في ذلك العصر – غير صحيحة. وأيّده على هذا أنطوان لافوزييه Antoine Lavoisier في عام ١٧٧٤ ميلادي، بل أقنع المجتمع العلمي الغربي بذلك.

وقد أدّى اكتشاف لافوزييه Lavoisier لقانون حفظ الكتلة إلى اكتشافات كثيرة أخرى في القرن التاسع عشر، مثل قانون بروست Prust للنسب المحددة [1] ، ونظريّة الذرّة لـ دالتون Dalton. فقد أثبتت التجارب الكمّيّة لـ لافوزييه Lavoisier بأنّ الانفجار الذي حصل في مختبره إنّما كان بسبب غاز الأوكسجين Oxygen لا الفلوجستون phlogiston.

أمّا قانون حفظ الطاقة فينصّ على أنّ الطاقة الإجماليّة في أيّ نظام معزول تبقى ثابتة ولا تُستحدث ولا تُباد، بل إنّها تتحوّل من شكل إلى آخر، أو من صورة إلى أخرى.

ومرّ هذا القانون بعدّة مراحل ابتداءً من عام ١٦٣٨ ميلادي على يد غاليليو Galileo، مرورًا بـ غوتفريد لايبنتز Gottfried Leibniz بين عامي ١٦٧٦-١٦٨٩، ولافوزييه Lavoisier وبيير سيمون لابلاس Pierre-Simon Laplace في عام ١٧٨٣، وبنيامين طومسون Benjamin Thompson في عام ١٧٩٨، وتوماس يونج Thomas Young في عام ١٨٠٧، ويسبارد كوريوليس Gaspard-Gustave de Coriolis وجين بونسيليت Jean-Victor Poncelet بين عامي ١٨١٨-١٨٣٩، إلى أن وصل إلى آينشتين Einstein في نظريّته النسبيّة الخاصّة في عام ١٩٠٥.

فلقد أعلن آينشتين Einstein في عام ١٩٠٥ قانون تكافؤ المادة والطاقة[2] ، حيث لا يمكن لشيء أن يفنى من الوجود بل يتحوّل من شكل إلى شكل أو من صورة إلى صورة، وأعلن أنّ كلّ طاقة يمكنها أن تتحوّل إلى مادة، وأنّ كلّ مادة يمكنها أن تتحوّل إلى طاقة. فكلّ عمليّات الخلق في الوجود إنّما تعمل في هذا الإطار، والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

[1] قانون النسب الثابتة أو التركيب المحدّد

ويُسمّى بالإنجليزيّة: **Law of composition or Definite proportions**

[2] معادلة آينشتين Einstein الشهيرة: ($E = mc^2$) حيث E الطاقة المنتشرة، و m نقصان الكتلة، و c سرعة الضوء في الخلاء.

إلّا أنّ الكيميائي الفرنسي لافوزييه Lavoisier هو الذي أقنع المجتمع العلمي عام ١٧٨٣ بقبول مفهوم حفظ الكتلة، الذي استنتجه منفردًا من تجاربه المتعلّقة بالعلاقات الكمّيّة بين الأوكسجين والزئبق من جهة، وبين الأكسيد الناتج من اتّحادهما من جهة أخرى.

أيضًا نصير الدين الطوسي [1] (١٢٠١-١٢٧٤) كتبَ: المادة لا يمكنها أن تبيد كاملًا، بل إنّها تتغيّر شكلًا وحالًا وتركيبًا ولونًا وفي خاصيّات أخرى، وتتحوّل من حال إلى حال ومن نشأة إلى نشأة.

يُعتبر غاليليو Galileo أوّل من فكّر في انحفاظ الطاقة عام ١٦٣٨ عند دراسته لحركة البندول، حيث رأى أنّ طاقة الوضع (الطاقة الكامنة في الأشياء) تتحوّل إلى طاقة حركة باهتزاز البندول وبالعكس.

ثمّ جاء غوتفريد لايبنتز Gottfried Leibniz خلال الأعوام ١٦٧٦-١٦٨٩ وحاول صياغة الطاقة المصاحبة للحركة رياضيًّا.

واعتبر لايبنتز Leibniz أنّ أنظمة متعدّدة يكون لها طاقة حركة، سمّاها القوّة الحيّة في أي نظام، وتظلّ محفوظة طالما أنّ الكتل لا تتفاعل مع بعضها البعض. ويعتبر هذا التصوّر صحيحًا بالنسبة إلى بقاء طاقة الحركة في الحالات التي لا يكون فيها احتكاك.

وفي ١٨٣٧ أعلن كارل فريدريخ Carl Friedrich نظريّته بشأن الطاقة كالتالي: إضافة إلى ٥٤ عنصر من العناصر الكيميائيّة المعروفة في عام ١٨٣٧ هناك عامل آخر في العالم المادي وهو الطاقة. وتظهر الطاقة بأشكال مختلفة مثل الحركة والكهرباء والنور والمغناطيس والجاذبيّة الكيميائيّة وخاصيّة الترابط والتماسك وغيرها، وأنّ كلّ شكل يمكن تحويله إلى شكل آخر.

---

[1] وقد شرحت سيرة حياته، وعن إنجازاته العلمية الرائعة، والتي كانت رائدة الحضارة الغربية، في كتابي (هكذا تكلّم الإمام جعفر الصّادق عليه السلام).

والقانون الشهير الذي اكتشفه آينشتين Einstein هو قانون تكافؤ المادة والطاقة، فالمادة يمكن أن تتحوّل إلى طاقة (في تفاعل نووي مثلًا)، ويمكن للطاقة أن تتحوّل إلى مادة (في إنتاج زوجي، حيث يتحوّل شعاع غاما إلى إلكترون وبوزيترون).

وهذه المعادلة هي إثبات آخر لقانون بقاء المادة، فالمادة لا تفنى، وإنّما يمكن أن تحوّل إلى طاقة.

بدايع الله في خلقه

يا نفسُ ! يصف أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام بدايع خلق الله وعجائبه في النّملة والجرادة وغيرهما فيقول: وَلَوْ فَكَّرُوا فِي عَظِيمِ الْقُدْرَةِ، وَجَسِيمِ النِّعْمَةِ، لَرَجَعُوا إِلَىٰ الطَّرِيقِ، وَخَافُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَلكِنَّ الْقُلُوبَ عَلِيلَةٌ، وَالْبَصَائِرَ مَدْخُولَةٌ[1] .

أَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ صَغِيرِ مَا خَلَقَ اللهُ كَيْفَ أَحْكَمَ خَلْقَهُ، وَأَتْقَنَ تَرْكِيبَهُ، وَفَلَقَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ، وَسَوَّىٰ لَهُ الْعَظْمَ وَالْبَشَرَ !

أُنْظُرُوا إِلَىٰ النَّمْلَةِ فِي صِغَرِ جُثَّتِهَا، وَلَطَافَةِ هَيْئَتِهَا، لاَ تَكَادُ تُنَالُ بِلَحْظِ الْبَصَرِ (النَّظَرِ)، وَلاَ بِمُسْتَدْرَكِ الْفِكَرِ، كَيْفَ دَبَّتْ عَلَىٰ أَرْضِهَا، وَسَعَتْ فِي مَنَاكِبِهَا، وَصُبَّتْ (ضَنَّتْ) عَلَىٰ رِزْقِهَا (وَطَلَبَتْ رِزْقِهَا)، تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَىٰ جُحْرِهَا، وَتُعِدُّهَا فِي مُسْتَقَرِّهَا، تَجْمَعُ فِي حَرِّهَا لِبَرْدِهَا، وَفِي وِرْدِهَا [2] (وُرُودِهَا) لِصَدَرِهَا[3] ، مَكْفُولٌ بِرِزْقِهَا، مَرْزُوقَةٌ بِوِفْقِهَا[4] ، لاَ يُغْفِلُهَا (لاَ يَغْفَلُ عَنْهَا) الْمَنَّانُ، وَلاَ يَحْرِمُهَا الدَّيَّانُ، وَلَوْ فِي الصَّفَا الْيَابِسِ، وَالْحَجَرِ الْجَامِسِ[5] (الْحَامِسِ).

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجَارِي أَكْلِهَا، وَفِي عُلْوِهَا وَسُفْلِهَا، وَمَا فِي الْجَوْفِ مِنْ شَرَاسِيفِ[6] بَطْنِهَا، وَمَا فِي الرَّأْسِ مِنْ عَيْنِهَا وَأُذُنِهَا، لَقَضَيْتَ مِنْ خَلْقِهَا عَجَباً، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِهَا تَعَباً.

فَتَعَالَىٰ اللهُ الَّذِي أَقَامَهَا عَلَىٰ قَوَائِمِهَا، وَبَنَاهَا عَلَىٰ دَعَائِمِهَا، لَمْ يَشْرَكْهُ فِي فِطْرَتِهَا فَاطِرٌ، وَلَمْ يُعِنْهُ عَلَىٰ خَلْقِهَا قَادِرٌ. لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ، لاَ مَعْبُودَ سِوَاهُ.

---

(1) معيبة.

(2) ورودها

(3) رجوعها

(4) بحسب حالتها يعني كفافها.

(5) الصّلد الجامد.

(6) جوانب الأضلاع.

وَلَوْ ضَرَبْتَ فِي مَذَاهِبِ فِكْرِكَ لِتَبْلُغَ غَايَاتِهِ، مَا دَلَّتْكَ الدَّلاَلَةُ إِلاَّ عَلَى أَنَّ فَاطِرَ النَّمْلَةِ هُوَ فَاطِرُ النَّخْلَةِ (النَّحْلَةِ)، لِدَقِيقِ تَفْصِيلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَغَامِضِ اخْتِلاَفِ كُلِّ حَيٍّ، وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ، إِلاَّ سَوَاءٌ.

كَذٰلِكَ السَّمَاءُ وَالْهَوَاءُ، وَالرِّيَاحُ وَالْمَاءُ، فَانْظُرْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ، وَالْمَاءِ وَالْحَجَرِ، وَاخْتِلاَفِ هٰذَا اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَفَجُّرِ هٰذِهِ الْبِحَارِ وَالأَنْهَارِ، وَكَثْرَةِ هٰذِهِ الْجِبَالِ، وَطُولِ هٰذِهِ الْقِلاَلِ، وَتَفَرُّقِ هٰذِهِ اللُّغَاتِ، وَالأَلْسُنِ الْمُخْتَلِفَاتِ، فَالْوَيْلُ لِمَنْ أَنْكَرَ الْمُقَدِّرَ، وَجَحَدَ الْمُدَبِّرَ.

زَعَمُوا أَنَّهُمْ كَالنَّبَاتِ مَا لَهُمْ زَارِعٌ، وَلاَ لِاخْتِلاَفِ صُوَرِهِمْ صَانِعٌ، وَلَمْ يَلْجَؤُوا إِلَى حُجَّةٍ فِيمَا ادَّعَوْا، وَلاَ تَحْقِيقٍ لِمَا أَوْعَوْا (وعَوْا)، وَهَلْ يَكُونُ بِنَاءٌ مِنْ غَيْرِ بَانٍ، أَوْ جِنَايَةٌ مِنْ غَيْرِ جَانٍ !.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي الْجَرَادَةِ، إِذْ خَلَقَ لَهَا عَيْنَيْنِ حَمْرَاوَيْنِ، وَأَسْرَجَ[1] لَهَا حَدَقَتَيْنِ قَمْرَاوَيْنِ[2]، وَجَعَلَ لَهَا السَّمْعَ الْخَفِيَّ، وَفَتَحَ لَهَا الْفَمَ السَّوِيَّ، وَجَعَلَ لَهَا الْحِسَّ الْقَوِيَّ، وَنَابَيْنِ [3] بِهِمَا تَقْرِضُ، وَمِنْجَلَيْنِ[4] بِهِمَا تَقْبِضُ، يَرْهَبُهَا الزُّرَّاعُ فِي زَرْعِهِمْ، وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ذَبَّهَا [5] (رَدَّهَا)، وَلَوْ وَلَوْ أَجْلَبُوا بِجَمْعِهِمْ[6] ، حَتَّى تَرِدَ الْحَرْثَ فِي نَزَوَاتِهَا[7] ، وَتَقْضِيَ مِنْهُ شَهَوَاتِهَا، وَخَلْقُهَا كُلُّهُ لاَ يَكُونُ إِلاَّ إِصْبِعاً مُسْتَدِقَّةً[8] .

---

(١) خلق.

(٢) ساطعتين.

(٣) السنّين الأماميّين.

(٤) مقدّم الرّجلين.

(٥) دفعها.

(٦) تعاونوا جميعًا.

(٧) قفزاتها.

(٨) نحيفة.

فَسُبْحَانَ الْبَارِئِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ، وَ تَبَارَكَ الَّذِي يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَيُعَفِّرُ لَهُ خَدّاً وَوَجْهاً، وَيُلْقِي إِلَيْهِ بِٱلطَّاعَةِ سِلْماً وَضَعْفاً، وَيُعْطِي لَهُ الْقِيَادَ رَهْبَةً وَخَوْفاً.

فَٱلطَّيْرُ مُسَخَّرَةٌ لأَمْرِهِ، أَحْصَىٰ عَدَدَ الرِّيشِ مِنْهَا وَٱلنَّفَسَ، وَأَرْسَىٰ قَوَائِمَهَا عَلَىٰ النَّدَىٰ وَالْيَبَسِ، وَقَدَّرَ أَقْوَاتَهَا، وَأَحْصَىٰ أَجْنَاسَهَا، فَهٰذَا غُرَابٌ، وَهٰذَا عُقَابٌ، وَهٰذَا حَمَامٌ، وَهٰذَا نَعَامٌ، دَعَا كُلَّ طَائِرٍ بِٱسْمِهِ، وَتَكَفَّلَ لَهُ (كَفَلَ) بِرِزْقِهِ، وَأَنْشَأَ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَأَهْطَلَ دِيَمَهَا، وَعَدَّدَ قِسَمَهَا، فَبَلَّ الأَرْضَ بَعْدَ جُفُوفِهَا، وَأَخْرَجَ نَبْتَهَا بَعْدَ جُدُوبِهَا[1] .

[1] موسم الجفاف.

يا نفسُ ! يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

يابن ادم أجلك يضحك بأملك، و قضائي يضحك من حذرك، و تقديري يضحك من تدبيرك، وآخرتي تضحك من دنياك، و قسمتي تضحك من حرصك، فإنّ رزقك موزون معروف مكتوب مخزون، فبادر للموت بعملك الخير قبل الموت فإنّ رزقك لا يأكله غيرك، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. إنّ الدنيا اليوم لك وغدًا لغيرك.

يا نفسُ ! إنّ الدّنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

www.taqimusawi.com

٠٠٩٦٨٩٩٤١٩٤٦١

صندوق البريد ٩٢٠

الرمز البريدي ١١٤

اسم الملف:	Asrar_Alnafs_Albashariah part 8
الدليل:	C:\Users\MTO\Desktop\أسرار النفس البشرية\الجزء الثامن
القالب:	C:\Users\MTO\AppData\Roaming\Microsoft\Templates\Normal.dotm
العنوان:	
الموضوع:	
الكاتب:	Admin
الكلمات الأساسية:	
تعليقات:	
تاريخ الإنشاء:	٢٠١٦/٠٣/٠٣ ٠٧:٢٨:٠٠
رقم التغيير:	١١٤
الحفظ الأخير بتاريخ:	٢٠١٦/٠٣/٢٠ ١٤:٠١:٠٠
الحفظ الأخير بقلم:	MTO
زمن التحرير الإجمالي:	٢,٠٥٥ دقائق
الطباعة الأخيرة:	٢٠١٦/٠٣/٢٠ ١٤:٠٢:٠٠
منذ آخر طباعة كاملة	
عدد الصفحات:	١٤٥
عدد الكلمات:	٢١,٣١٠ (تقريباً)
عدد الأحرف:	١٢١,٤٧١ (تقريباً)